

علماء الفتنة

وأبواق السلطة

بقلم

خالد خليف

علماء الفتنة
وأبواق السلطة

الطبعة الأولى

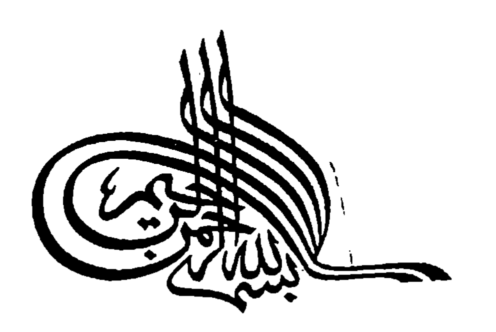
١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع: ٢١٩٩٧/ ٢٠١٦

علماء الفتنة
وأبواق السلطة

بقلم
خالد خليف





إنني لا أقدم كتابًا للإمتاع والمؤانسة، لكن ثورة على علماء نالوا ما نالوا باسم الحديث عن الحقيقة، فلما علا شأنهم بلعتْ أطماعُهم الحقيقةَ!!

وهو شظايا تحرق أوثان الخشب التي نُصبت للناس باسم الدين لتصدَّ الناسَ عن الدين!

إنه نذيرٌ للأمة قبل أن يُوقِعها خونة العلماء في أتون الكارثة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

غريب جدًّا أن يحصل الانحراف مِن قِبل العلماء، لكنَّه واردٌ وغير مستبعَد، وقد شاهدنا نماذج للحاكم المستبد، والتاجر الغاش، والمرأة الناشز، وجار السوء والعبد الآبق، والمهندس الفاشل، والقاضي المرتشي.. وغيرهم كثر عبر التاريخ.

لكننا لا ننكر حاجتنا إلى فتح ملف العالِم الخائِن الذي باع آخرته بدنياه أو بدنيا غيره، وذلك ما جعل عمر بن الخطاب يتعوذ باللَّه -تعالى- من المنافق عليم اللسان.

فعن أبي عمران الجوني عن هرم بن حيان أنه قال: إياكم والعالم الفاسق، فبلغ عمر بن الخطاب فأشفق منها، ما العالم الفاسق؟ فكتب إليه هرم بن حيان: «واللَّه يا أمير المؤمنين ما أردت إلا الخير، يكون إمام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق فيشبه على الناس فيضلوا»[1]

وعن زياد بن حدير الأسدي قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: «ثلاث أخافهن عليكم وبهن يهدم الإسلام: زلة العالم، و- هو - رجل عهد الناس عنده علمًا فاتبعوه على زلة، ورجل منافق قرأ القرآن فما

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/ ١٣٣) والدارمي في سننه (٣٠٠) وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

أسقط منه ألفًا ولا واوًا أضل الناس عن الهدى إذ كان أجدلهم، وأئمة مضلون»[١]

لا بد من فتح هذا الموضوع بشجاعة؛ لأنه من النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم التي أمرنا بها الإسلام، وهي نصيحة مهجورة..

وقد بات الحديث عن شريحة العلماء ملحًا لعدة أمور، منها:

١- إن البعض يهاب الحديث عما يخص العلماء، حتى لا يعد آكلًا للحوم العلماء المسمومة، فاختلط على الناس الأمر، وطغى حق الشخص على حق النص، وحق حامل الشرع على الشرع نفسه، وحق الشرع مقدَّمٌ - لا خلاف في ذلك-، وإضفاء الهالة على شخص غير معصوم، جريمة منكرة في حق كل من شارك فيها، ورضي بها.

٢- إن البعض يظن أن مجرد حفظ الأدلة كافٍ لحصول النجاة للشيوخ بالمجان، وهذا من تلبيس إبليس -لعنه الله- كما قال ابن الجوزي: «. ومنهم من يلبِّس عليه إبليس بأنه عالم وفقيهٌ ومفتٍ، والعلم يدفع عن أربابه!! وهيهات فإن العلم أولى أن يحاجه ويضاعف عذابه»..

وقد قال الحسن البصري: «إنما الفقيه من يخشى الله تعالى».

وقال ابن عقيل: «رأيت فقيهًا خراسانيًا عليه حرير وخواتم ذهب، فقلت له: ما هذا؟ فقال: خِلَع السلطان وكمد الأعداء!! فقلت له: بل هو شماتة الأعداء بك إن كنت مسلمًا؛ لأن إبليس عدوك، وإذا بلغ منك مبلغك ألبسك ما يُسخِط الشرع، فقد أشمتَّه بنفسك، وهل خِلَع السلطان سائغة

(١) أخرجه الفريابي في صفة المنافق (١/ ٥٤، رقم ٣١).

لنهي الرحمن يا مسكين؟! خلع عليك السلطان ما انخلعت به من الإيمان، وقد كان ينبغي أن يخلع بك السلطان لباس الفسق، ويلبسك لباس التقوى، رماكم اللَّه بخزيه حيث هوَّنتم أمره هكذا، ليتك قلت: هذه رعونات الطبع، الآن تمت محنتك؛ لأن عدوانك دليل على فساد باطنك» ا.هـ[١]

٣- وقوفنا نحن وغيرنا على مدى الكوارث التي لحقت الأمة بسبب انحراف علمائها، وتقصيرهم عن أداء مهمة البلاغ المبين التي انتدبهم الدين للقيام بها، حيث تسبب سكوت العلماء عن إنكار المنكرات في شرعنة الباطل، فضلًا عن تأنيس الناس به، وهذا يجعلهم شركاء فيه.

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها؟!

وربما يبرر بعضُهم لنفسه السكوت بحجج كثيرة، حتى ادعى بعضهم أن سكوته مخافة الرياء، وذلك السكوت الكاذب الذي عدَّه ابن الجوزي من تلبيس إبليس فقال: «عن ثابت قال: كان الحسن في مجلس، فقيل للعلاء تكلم، فقال: أو هناك أنا؟! ثم ذكر الكلام ومؤنته وتبعته، قال ثابت: فأعجبني، قال: ثم تكلم الحسن، فقال: إننا هناك، يود الشيطان أنكم أخذتموها عنه فلم يأمر أحدًا بخير ولم ينهه عن شر» ا.هـ[٢]

٤- شدة احتياجنا إلى تمييز الصفوف في هذا الزمان في كل المجالات، وقد هالنا ما رأيناه من الطعنات النجلاء التي وُجِّهت للصحوة الإسلامية مِن قِبل شيوخ ينتسبون للعلم، فتشتَّت جهدُنا ونحن نحاول أن نقيم للإسلام نظامًا على أساس شرعي سليم في كل مناحي الحياة!!

---

(١) انظر: تلبيس إبليس - الجزء السابع - مداخل إبليس على الفقهاء، (ص١٥٠).
(٢) انظر: تلبيس إبليس - الجزء السابع - مداخل إبليس على الفقهاء، (ص١٥٣).

ففي الوقت الذي تكلم بالعلم كثيرون تحتَّم علينا أن نتجنب عليم اللسان منافق القلب.

ولأن علماء السوء منافقون، وليسوا بعلماء، وكان من الواجب علينا تجنُّب المنافقين، فقد وجب بيان حالهم، وجرت سنة اللَّه -تعالى- في المنافقين أن يهتك سترهم، ويكشف عما تُكنُّ صدورُهم، قال سبحانه متوعدًا ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: «أي: أيعتقد المنافقون أن اللَّه لا يكشف أمرهم لعباده، بل سيوضح أمرهم ويجلِّيه حتى يفهمهم ذوو البصائر».

وقال الطبري في تفسيره لقوله -تعالى-: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠]: فلتعرفنهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم في فحوى كلامهم وظاهر أفعالهم».

ومعلوم أن علماء السوء هم أشد الخلق عذابًا يوم القيامة، وقد ورد في علماء السوء تشديدات عظيمة؛ لكونهم منافقين.

كما أنه من المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وبات من الضروري التعرف على هذه الفوارق ليحذر الناس.

وكما قال القائل:

علمت الشر لا للشر لكن لتوقيه ... ومن لا يعرف الشر يقع فيه

وكما قالوا: «وبضدها تتميز الأشياء».

وهذا حذيفة ﷺ يقول: «يَقُولُ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[1] وأنت ترى جل أحاديث علامات الساعة وأخبار آخر الزمان مروية عن حذيفة ﷺ

٥- بات من حق كل مسلم أن يتعرف على إمامه وقدوته معرفة نافية للجهالة؛ حتى يتسنى له أن يثق فيه، فقد تعددت الآراء، وكثر المتمسحون بالعلم، وقد يوردك بعضهم المهالك دون أن تدري؛ لأنهم ليسوا على درجة واحدة، بل على أنواع شتى.

فمن العلماء من يحب أن يخزن علمه، ولا يُؤخَذ عنه.

ومن العلماء من إذا وُعظ أنف، وإذا وَعظ عنف، فإذا أراد أن ينصح الناس ويرشدهم، كان كلامه بعنف وغلظة، أما إذا نصحه الآخرون، فإنه يستنكف من قبول الموعظة.

ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف، ولا يرى له في المساكين وضعًا، وهذا يجعل علمه تبعًا لأهواء أصحاب المال، وأصحاب الجاه والنفوذ، ولا يعطي علمه للمستضعفين حتى يتحرروا به من مسكنتهم.

ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين، فإن رُدَّ عليه شيءٌ من قوله، أو قُصِّر في شيء من أمره غضب.

ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغزر بها علمه، ويكثر

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١).

بها حديثه، وهؤلاء هم العلماء الانتقائيون الذين يريدون أن يرفعوا أنفسهم حتى لو كان بذِلة الدين وتحطيم الرسالة.

ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا، ويقول: سلوني، ولعلّه لا يصيب حرفًا واحدًا، واللّه لا يحب المتكلفين.

ومن العلماء من يتخذ علمه للعلو والنفوذ، وهؤلاء هم الذين يستفيدون من علمهم في سبيل الاستعلاء على الناس، ويطلبون العلم لكي يعدّهم الناس من أهل العقل، كالكهنة الذين كانوا في بعض مراحل التاريخ أكثر قوة من الملوك، فكانوا يستغلون الجماهير بعلمهم وفطنتهم، وهؤلاء لم يوظّفوا علمهم من أجل السلاطين، ولا من أجل أصحاب المال والنفوذ، وإنما من أجل ذواتهم، وإرضاء لشهوة التسلط والتحكم عندهم.

٦- ومما يوجب الحاجة لدراسة هذا الموضوع: طفوحُ هذا الكمّ الهائل من الفتاوى التي لا تتفق مع الشرع، والتي استُجلبت لتخدم الظالمين ولتضرب الدين في الصميم، ولا يخفى ما في هذه الفتاوى من مجاملات واضحة أو فاضحة جعلت من الدين موظف تشريفات يُستدعى لإقرار الباطل ثم يتم طرده بعد ذلك ليخلو المجال للفاسدين.

كثر لغو هؤلاء العلماء الذين حملوا العلم وتعلموه ليستخدموه في أمور الدنيا ومصالحها، وهم علماء السوء الذين تسببوا للأمة والدين بمِحَن وويلات وكوارث وإساءات كبيرة..!

فهذا عالِمٌ يفتي بجهادية التجنيد لصالح الصراعات الدنيوية والأمور الباطلة!

وآخر يجيز التحالف مع الكافر على حساب أبناء قومه ودينه، لتحقيق

غايات دنيوية منافية للشرع والدين!

وغير هؤلاء مَن يوسِّع الفتوى لتصل إلى الاستعانة بالعدو الكافر، والتواطؤ معه لتحقيق أغراض دنيوية مثل الوصول للسلطة، ولو أدى ذلك لدمار المسلمين وموت كثير منهم، وتهجيرهم وتجويعهم، وتخريب مصالحهم، وإلحاق الضرر بثرواتهم وأموالهم وديارهم.

وآخر يجيز قتل الإنسان لتعارض أفكاره وقناعاته مع النظام الحاكم! وهذا عالم يدَّعِي أن فلانًا الظالم القاتل نبيٌّ يُوحَى إليه!

وآخر يقول بوجوب قتل المنادين بتطبيق الشريعة لأنهم خوارج! وأن من دعا على الظالمين فهو خارجي يستوجب القتل!

وآخر يطلب بإجلائهم عن البلاد، وتطليق نسائهم واستباحة أموالهم!

وآخر يجرِّم الحجاب، ويقول بأن الراقصة إن ماتت وهي في طريقها للرقص فهي شهيدة!

وآخر يفسِّر تمثيل المشاهد الفاضحة بالبيان المقصود في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]. إلخ. **لك الله يا ديننا.. لك الله!**

وصار الأمر كما قال المثل الإنجليزي: «اللَّهم اكفني شر أصدقائي، أما أعدائي فأنا كفيل بهم».

تقسيم البحث:

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وستة فصول، أشرت إلى فضل العلم والعلماء في الفصل الأول، ثم إلى تسجيل بعض الملاحظات الجديرة بتسليط الضوء على انحراف دور العلماء، في الفصل الثاني.

ثم طوفت بالحديث حول بيان أصناف من العلماء ورد في شأنها تحذير ووعيد ليسهل على المسلم كشفها وتجنبها في الفصل الثالث.

ثم أفردت الفصل الرابع للحديث عن علماء السلاطين، ودورهم في خدمة رغائب أسيادهم، وأنهم موظفون لا علماء، وأجبت على سؤال: لماذا يحتاج الطاغية إلى عالم؟

ثم ألقيت بعض الضوء على كرام العلماء وسادة التغيير، وأشرت إلى بعض النماذج المشرفة عبر التاريخ، وذلك في الفصل الخامس.

وفي الفصل السادس: وضعت تصورًا لنموذج العالم الذي نريد -في هذه المرحلة بالأخص-، واكتفيت بواجبات عشرة تميز هذا الصنف عن غيره من العلماء.

هذا، ولم أستدل إلا بما يصلح به الاستشهاد في بابه، وقد اعتمدت آثارًا كثيرة، وهي في كتب الصحاح وغيرها؛ ولأن موضوع البحث مندرج في باب الترغيب والترهيب -وهو واسع المدى- لم أقتصر على الصحيح، طالما أن الرواية لها أصل تُبنَى عليه، وتتفق مع قواعد الشرع وأصوله، وسلمت من المعارضة لما هو أقوى منها وأصح.

وبالله التوفيق

المؤلف

القاهرة - رمضان ١٤٣٦هـ

الفصل الأول
العلم والعلماء..
فضائل وضوابط

الفصل الأول

العلم والعلماء.. فضائل وضوابط

إننا إذ نفتح ملف الفجَرة من العلماء الذين هم أشد على الأمة من إبليس. فإن ذلك لا ينسينا أن ننوِّه على شرف العلم وعلو شأن حَمَلته الصادقين في كل زمان ومكان، وأن أهله هم من يعملون به لا من يحملونه للمتاجرة والمفاخرة، وإليك بعض هذه المأثورات:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرًا، أو يفهم منه زجرًا[١]

وقد قال ابن عباس في قول اللّه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ قال: يرفع اللّه الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا بدرجات[٢]

وفي صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخُزاعي - وكان عاملَ عمرَ على مكةَ - أنه لقيه بعُسْفانَ، فقال له: مَن استخلفتَ؟ فقال: استخلفت ابنَ أبزى -مولًى لنا- فقال عمر: استخلفت مولًى؟! قال: إنه قارئ لكتاب اللّه، عالم بالفرائض. فقال عمر: أمَا إن نبيكم قد قال: إن اللّه يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين[٣]

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٣٦).
(٢) رواه الدارمي (٣٥٣)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.
(٣) أخرجه مسلم (٨١٧).

وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قال: بالعلم[١] وقال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال ابن كثير: «. ثم قَرَن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام»[٢]

وقال القرافي: «بدأ بنفسه، وثنّى بالملائكة، وثلّث بالعلماء دون سائر خلقه، فيكون من عداهم دونَهم»[٣]

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «الأمور العظيمة لا يُستشهد عليها إلا الخواص»[٤]

وقال الحافظ ابن حجر: «قوله عز وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] واضحُ الدلالة في فضل العلم؛ لأن الله -تعالى- لم يأمر نبيَّه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم»[٥]

وفي السنن عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم»[٦]

قال القرافي: «ولو لم تعلم الملائكة أن منزلته عند الله تستحق ذلك لما

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ١٤١).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤).
(٣) الذخيرة (١/ ٤١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص٢١٥).
(٥) فتح الباري (١/ ١٤١).
(٦) رواه أبو داود (٦٣٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وصححه الألباني.

فعلته، فينبغي لكل أحد من الملوك فمن دونهم أن يتواضعوا لطلبة العلم[١] اتباعًا لملائكة اللَّه -تعالى- وخاصَّة مُلْكه»[٢]

وفي الصحيحين عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين»[٣]

وقال الزهري: «ما عُبِدَ اللَّهُ بمثل الفقه»[٤]

قال ابن الجوزي: «ليس في الوجود شيءٌ أشرفَ من العلم، كيف لا وهو الدليل؛ فإذا عُدم وقع الضلال»[٥]

وقال ابن الجوزي أيضًا: «لا خِصِّيصةَ أشرفُ من العلم؛ بزيادته صار آدم مسجودًا له، وبنقصانه صارت الملائكة ساجدة، فأقرب الخلق من اللَّه العلماء»[٦]

قلت: العلماء الصادقون لا غيرُ.

وقال الشوكاني: «منزلة العلم وأهلِه هي المنزلة التي لا تُساميها منزلة، وإن علَت، ولا تساويها رتبة وإن ارتفعت»[٧]

---

(١) قال أبو معاوية الضرير: «أكلت مع الرشيد يومًا، ثم صُبَّ على يديَّ رجل لا أعرفه، ثم قال الرشيد: تدري مَن يصبُّ عليك؟ قلت: لا، قال: أنا، إجلالًا للعلم». تاريخ الخلفاء للسيوطي، (ص٢٨٥).

(٢) الذخيرة (١/ ٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

(٤) الفقيه والمتفقه (١/ ١١٩).

(٥) صيد الخاطر، (ص١١٢).

(٦) صيد الخاطر، (ص١٧٢).

(٧) أدب الطلب ومنتهى الأرب، (ص١٦٤).

وقال الماوردي: «اعلم أن العلم أشرف ما رَغِب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجدَّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب؛ لأن شرفه يُثمر على صاحبه، وفضله ينمي على طالبه، قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، فمَنع المساواة بين العالم والجاهل لِمَا قد خَصَّ به العالمَ من فضيلة العلم.

وقيل للإمام مالك: «ما أفضل ما يصنع العبد؟ قال: طلب العلم»[١]

وقال ابن الجوزي في «التذكرة في الوعظ» -فضل العلم والعلماء-: «من أحب أن يكون للأنبياء وارثًا، وفي مزارعهم حارثًا؛ فليتعلم العلم النافع وهو علم الدين، ففي الحديث: «العلماء ورثة الأنبياء»[٢]، وليحضر مجالس العلماء؛ فإنها رياض الجنة».

ومن أحب أن يعلم ما نصيبه من عناية اللّه، فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين اللّه؛ ففي الحديث: «من يرد اللّه به خيرًا يفقهه في الدين»[٣]

ومن سأل عن طريق تُبلِّغه الجنةَ. فليمشِ إلى مجلس العلم، ففي الحديث: «من سلك طريقًا يلتمس فيها علمًا سلك اللّه به طريقًا إلى الجنة»[٤]

ومن أحب ألا ينقطع عمله بعد موته فلينشر العلم بالتدوين والتعليم؛ ففي الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو

---

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٦١).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) وصححه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١][٢]

الاشتغال بالعلم أفضل من نوافل العبادات:

واعلم أن العلم أفضل من العبادة، وكما صح في الحديث: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»[٣]، والانشغال بنوافل العبادات عن العلم لمن سلك سبيله أو تعين عليه إخسار في الميزان، والأولى أن يجمع بينهما بما يجعل كلًا منهما في درجته ورتبته ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧].

وفي هذا يقول ابن الجوزي: «تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به، فإذا هو يُقوِّي في القلب قوة تميل به إلى نوع قساوة، ولولا قوة القلب وطول الأمل لم يقع التشاغل به، فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه، وأبتدئ بالتصنيف أرجو أن أتمه، فإذا تأملت باب المعاملات (أي: أبواب الرقائق والعبادات) قَلَّ الأمل، ورق القلب، وجاءت الدموع، وطابت المناجاة، وغشيت السكينة، وصِرتُ كأني في مقام المراقبة، إلا أن العلم أفضل وأقوى حجة، وأعلى رتبة، وإن حدث منه ما شكوتُ منه، والمعاملة وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها، فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكسلان، الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم..»[٤]

ثم يقرر ابن الجوزي أن الجمع بين الأمرين ميسور بأن يشغل العالم نفسه

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).
(٢) التذكرة في الوعظ، (ص٥٥).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) وصححه الألباني.
(٤) صيد الخاطر (ص١٦٠).

بالعلم، ثم يراقب قلبه فإن وجد جفافًا رطّبه بالمرقّقات، فقال في ذلك: «فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرقّقات تلذيعًا لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم؛ فإني لأكره لنفسي من جهة ضعف قلبي ورقته أن أُكثر زيارة القبور، وأن أحضر المحتضرين؛ لأن ذلك يؤثر في فكري، ويخرجني من حيز المتشاغلين بالعلم إلى مقام الفكر في الموت، ولا أنتفع بنفسي مدة»[1] وربما يختلف هذا الدواء في نوعيته ونسبته من إنسان لآخر، وكلٌ يعمل على شاكلته.

العلم وسيلة وغايته العمل:

اعلم أن العلم وسيلةٌ وليس غايةً..

ولذلك قال الشاطبي: «العلم وسيلة من الوسائل، ليس مقصودًا لنفسه من حيث النظرُ الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم؛ فإنما هو ثابتٌ للعلم من جهة ما هو مُكلَّف بالعمل به»[2]

وقال الشاطبي: «العلم المعتبر شرعًا -أعني الذي مدح الله ورسولُه أهلَه على الإطلاق- هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيّد لصاحبه بمقتضاه، الحاملُ له على قوانينه طوعًا أو كرهًا»[3]

وقال ابن الجوزي: «أمارة النجابة طلب العلم للعمل به»[4]

(١) صيد الخاطر (ص ١٦٠ - ١٦١).
(٢) الموافقات (١/ ٨٣).
(٣) الموافقات (١/ ٨٩).
(٤) صيد الخاطر، (ص ٧٠).

فمن طلبه للعمل فتح له، وإلا فهو يستكثر من حجة اللّه عليه.

وفي هذا قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروح؛ روح المعرفة المنشئة للعمل، إنه لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ -وإن كان هذا كله من محتوياته-، إنما جاء ليكون منهاج حياة؛ منهاجًا إلهيًّا خالصًا»(١)

وكان يقال: خيرٌ من القول فاعله، وخير من الصواب قائله، وخير من العلم حامله.

وقال بعض العلماء: «ثمرة العلم أن يُعمل به، وثمرة العمل أن يؤجر عليه».

وقال بعض العلماء: «خير العلم ما نفع، وخير القول ما ردع».

وقال بعض الأدباء: «ثمرة العلوم العمل بالعلوم»(٢)

وقال أحمد بن حنبل: «وهل يُراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف؟»(٣)

وقالت أم الدرداء لرجل: «هل عملت بما علمت؟ قال: لا، قالت: فلِمَ تستكثري من حجة اللّه عليك؟»(٤)

---

(١) معالم في الطريق (ص ١٨).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص ٧٦).

(٣) انظر: تاريخ بغداد (١٣/ ٢٠٠)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٥٣)، وطبقات الحنابلة (١/ ٣٨٢).

(٤) صيد الخاطر (ص ٥٧).

وقال أبو إسحاق الشيرازي: «الجاهل بالعالم يقتدي، فإذا كان العالم لا يعمل، فالجاهل ما يرجو من نفسه؟ فاللّه اللّه يا أولادي! نعوذ باللّه من علمٍ يصير حجة علينا»[١]

وأجمع من ذلك قول رسول اللّه ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك»[٢]

قال السيوطي: أي: تنتفع به إن تلوتَه وعَمِلت به، وإلا فهو عليك حجة[٣]

وقال أبو إسحاق الشيرازي: «العلم الذي لا يَنتفع به صاحبُه أن يكون الرجل عالمًا ولا يكون عاملًا»[٤]

ولذلك قال ابن القيم: «فإن العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع»[٥]

وروى الدارمي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد اللّه بن سلام: «من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون بما يعلمون»[٦]

وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر -بمشيئة اللّه تعالى- عند الحديث عن الأنواع المذمومة من العلماء المتساقطين.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٥٧).
(٢) رواه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري.
(٣) الديباج للسيوطي (٢/ ١٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٥٧).
(٥) مدارج السالكين (١/ ٤٤٥).
(٦) رواه الدارمي (٥٧٥)، وقال محققه حسين سليم أسد: رجاله ثقات، وإسناده صحيح.

الحاجة إلى ترطيب جفاف العلم بالتزكية:

ربما يتنازع العالم طلب العلم ونشره من جانب، والعكوف من جانب آخر على إصلاح نفسه بألوان المجاهدات ليستيقظ قلبه.

قال ابن الجوزي: «وفصل الخطاب في هذا أنه ينبغي أن يُقاوَم المرض بضده، فمن كان قلبه قاسيًا شديد القسوة، وليس عنده من المراقبة ما يكفّه عن الخطأ قاوم ذلك بذكر الموت، ومحاضرة المحتضرين، فأما من قلبه شديد الرقة فيكفيه ما به، بل ينبغي له أن يتشاغل بما يُنسيه ذلك لينتفع بعيشه، وليفهم ما يفتي به، وقد كان الرسول ﷺ يمزح ويسابق عائشة رضي الله عنها، ويتلطف بنفسه، فمن سار سيرته -عليه الصلاة والسلام- فهم من مضمونها ما قُلتُه من ضرورة التلطف بالنفس»[1]

وقال الإمام الغزالي: «كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقًا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومُفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عز وجل: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسَّلَم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يُقَسّي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى»[2]

(١) صيد الخاطر (ص ١٦٠ - ١٦١).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢).

وقال محمد بن عبادة المعافري: «كنا عند أبي شريح رَحِمَهُ اللَّهُ فكثُرت المسائل، فقال: قد دَرِنت قلوبكم، فقوموا إلى خالد بن حميد المهري استقلوا قلوبكم، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق، فإنها تجدد العبادة، وتورث الزهادة، وتجر الصداقة، وأقلوا المسائل، فإنها في غير ما نزل تقسِّي القلب، وتورث العداوة». قال الذهبي: صدق واللَّه»[١]

وقال ابن الجوزي: «ومن ذلك أنهم -يعني الفقهاء- جعلوا النظرَ جُلَّ اشتغالهم ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن، وسماع الحديث وسيرة الرسول ﷺ وأصحابه، ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير، وهي محتاجة إلى التذكار والمواعظ لتنهض لطلب الآخرة، ومسائلُ الخلاف وإن كانت من علم الشرع إلا أنها لا تنهض بكل المطلوب، ومن لم يَطَّلع على أسرار سير السلف وحال الذي تمذهب له لم يمكنهم سلوك طريقهم، وينبغي أن يُعلم أن الطبع لِصٌّ، فإذا تُرك مع أهل هذا الزمان سرَق من طبائعهم فصار مثلَهم، فإذا نظر في سير القدماء زاحمهم وتأدب بأخلاقهم، وقد كان بعض السلف يقول: حديث يرِق له قلبي أحب إليَّ من مائة قضية من قضايا شريح، وإنما قال هذا لأن رقة القلب مقصودة، ولها أسباب»[٢]

علم اللسان لا يغني عن إصلاح القلوب:

لا يليق بالعالم طليق اللسان صاحب الخطب الرنانة، والمقالات المدبجة، والشروح المطولة، والتفريعات العديدة أن يكون قاسي القلب جامد العين.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٨٢- ١٨٣).

(٢) تلبيس إبليس (ص ١٠٧).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢- ٣].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: «قدَّم -تعالى- أعمال القلوب؛ لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها»(١)

وقال النووي: «ينبغي أن يُطهِّر قلبه -أي: طالب العلم- من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره، ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(٢)، وقالوا: تطييب القلب للعلم كتطييب الأرض للزراعة»(٣)

وقال ابن الجوزي: «عمل القلب أفضل من عمل الجوارح»(٤)

وقال الزركشي: «العمل ينقسم إلى قلبي وبدني، والقلبي أفضل، ومن شرفه أنه لا يدخله الرياء، وإنما يدخل الأعمالَ الظاهرة، والرياء آفة كل عبادة»(٥)

وقال ابن القيم: «من تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها»(٦)

وقال أيضًا: «أعمال القلوب فرضها أفرض من أعمال الجوارح،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٣١٥).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).
(٣) مقدمة المجموع (١/ ٣٥).
(٤) تلبيس إبليس (ص ١٢١).
(٥) المنثور في القواعد (٢/ ٤٢٢).
(٦) بدائع الفوائد (٣/ ٧١٠).

ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة»(١).

وقال ابن القيم أيضًا: «معرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها»(٢).

وقال ابن الجوزي: «لما رأت نفسي في العلم حسنًا، فهي تُقَدِّمه على كل شيء وتعتقد الدليل، وتُفضِّل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل أني رأيت كثيرًا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم قد عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح، إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصِحْت بها: فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين القلق؟ أين الحذر؟ أما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟ أما كان الرسول ﷺ سيدَ الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه؟ أما كان أبو بكر ﷺ شجي النشيج كثير البكاء؟ أما كان في خد عمر ﷺ خطان من آثار الدموع؟ أما كان عثمان ﷺ يختم القرآن في ركعة؟ أما كان علي ﷺ يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري؟ أما كان الحسن البصري يحيى على قوة القلق؟ أما كان سعيد بن المسيب ملازمًا للمسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة؟ أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضر واصفر؟ أما قالت ابنة الربيع بن خثيم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فقال: إن أباك يخاف البيات.

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠١) بتصرف يسير جدًا.
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٧٠٥).

أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطًا في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر؟ أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة؟ وكان يقول: والهفاه سبقني العابدون وقُطِع بي، أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة؟ أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟ أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟ أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، احذري من الإخلاد إلى صورة العلم مع ترك العمل به، فإنها حالة الكسالى الزمنى»[1]

وقال الأستاذ عبد الكريم زيدان: «ومن العلم العزيز النادر الذي يغفُل عنه الكثيرون مع دلالة القرآن عليه وتصريحه به والدعوة إليه، علم طريق الآخرة الذي يهيج القلب ويزعجه ويدفعه إلى سلوكه، إن هذا العلم هو الذي قلّ وجوده بين الناس وبين طلاب العلم، وبدونه لا يُعتبر العالم عالمًا، وإن حفظ الشروح والمتون والأحكام وملأ رأسه منها وردّدها على لسانه، إن هذا العلم هو لُبُّ العلم وغايته، وكل مسلم محتاج إليه، والعالِم أشد حاجة إليه، والداعي أحوج من الجميع إليه، إن هذا العلم هو الذي نسميه «الفهم الدقيق»، وهو الذي فقِهه الصحابة الكرام وأُشربت به عقولهم وقلوبهم فضنُّوا بوقتهم أن يذهب سدًى في غير طاعة الله ودعوةٍ إليه، فنشِطت جوارحهم في العبادة والجهاد في سبيل الله والدعوة إليه حتى أتاهم من ربهم اليقين»[2]

وقال العز بن عبد السلام: «وصلاح الأجساد موقوفٌ على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب، ولذلك قال النبي

(١) صيد الخاطر (ص ٨٤ - ٨٦).

(٢) أصول الدعوة (ص ٣٢٧ - ٣٢٨).

ﷺ: ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[(١)][(٢)]

قال ابن القيم في القلب: «وهو المسئول عنها كلها؛ لأن كل راعٍ مسئول عن رعيته، فكان الاهتمامُ بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظرُ في أمراضه وعلاجها أهمّ ما تنسك به الناسكون»[(٣)]

وقال ابن الجوزي في «المنتخب»: «أدواء القلوب تفتقر إلى أدوية كما تحتاج أمراض البدن إلى معالجة»[(٤)]

وقال الغزالي: «فثمرة هذا العلم -يعني علم المعاملة- طبُّ القلوب والأرواح المتوصَّل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذي يُعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد»[(٥)]

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يذهب إلى المساجد القديمة المهجورة، ويمرِّغ وجهه، ويقول: «يا رب! علمني، يا رب فقهني».

وكان يقول: «دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها»[(٦)]

فإذا علمت يا أخي أهمية أعمال القلوب وأحكامها، فاعلم أن إصلاحك لقلبك هو أول طريق الطلب.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).
(٢) قواعد الأحكام (١/ ١٩٧ - ١٩٨).
(٣) إغاثة اللّهفان (١/ ٥).
(٤) أبجد العلوم (١/ ٥٣٢).
(٥) إحياء علوم الدين (١/ ٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٦).

حاجة العلماء
إلى محاسن الأخلاق والسلوك

العلم لا يُغني عن حسن الأدب وسمو الخُلق، وإنما بُعث الرسول ﷺ لإتمام محاسن الأخلاق، والعلماء أحوج الناس إلى تمثُّل القيم النبيلة والأخلاق الحسنة، والتي هي الثمرة الحقيقية للعلوم الشرعية؛ لأن اتساع المعارف وتراكم العلوم المجردة لا ينهض بالخسيسة الخُلُقية والعلل النفسية.

وكيف يُقبل قول عالم ساء خلقه وأَسِنَت طباعُه؟!

إن الكبر والغرور والحقد والشَّرَه، وطلب الدنيا، والغدر والنفاق، والتلون والخديعة.. إلخ، لهي جديرة بأن تأكل ثمار العلوم القولية مهما كثرت وتعددت، فضلًا عن كونها أخلاقًا مذمومة في كل الشرائع، وإنما نصب العلماء كأطباء لمداواة هذه الأمراض في مجتمعاتهم، فإذا كانوا هم المرضى كانوا أحوج الناس لهذا الدواء.

وغير تقي يأمر الناس بالتقى   طبيب يداوي الناس وهو عليل!

وقد قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات؛ شح مطاع، وهوى متَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه»[1]، وهي أمراض لا ينفكُّ عنها بَشَر لكن بنِسَب

(١) جزء من حديث رواه الطبراني في الأوسط (٥٤٥٢) من حديث ابن عمر، وحسنه الألباني.

مختلفة ومتفاوتة، وبقية مذمومات أحوال القلب كالكِبْر والعُجب وأخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات، وإزالتها فرضُ عين.

قال أبو حامد الغزالي عن أمراض القلوب: «ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها، ومعرفة أسبابها، ومعرفة علاماتها، ومعرفة علاجها، فإن مَن لا يعرف الشر يقع فيه، والعلاج هو مقابلة السبب بضده، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب؟ وأكثر ما ذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناس كافةً اشتغالاً بما لا يعني»[1]

* * * * *

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٥).

الفصل الثاني

وقفات وتوضيحات

الفصل الثاني
وقفات وتوضيحات

يجب علينا أن نعيد النظر فيما ترسخ في الأذهان من هالات وأوصاف أضفيناها على بعض البشر، رفعناهم بها إلى درجة العصمة، فصاروا فوق المساءلة، بل جُعل البعض منهم أصنامًا يوالَى عليها ويعادَى عليها، فاندثرت معاني النصيحة والتناصح، وقد علمنا أنه لا عصمة إلا لنبي، وأن كل إنسان يُؤخَذ منه ويُرَد إلا المعصوم، وأنه فوق كل ذي علم عليم. إلخ، هذه المسلَّمات الغائبة أو المغيبة بسبب التقديس الزائد لبشر يخطئون ويصيبون!! وهناك نقاط للعرض والمناقشة.

أوصاف فيها نظر:

لا بد أن نفرِّق تمامًا بين المتكلمين باسم الدعوة؛ لأنهم ليسوا على شاكلة واحدة، وقد درَج البعض على الإسراف في المدح لمن أسدى للدعوة معروفًا -أيَّ معروف-، وظهرت مصطلحات ونياشين من الأوصاف باتت تُعطَى لكل من هبَّ ودبَّ، كما كان البعض يصف من ألَّف كتابًا بقوله: شمس المعارف، وأصل العلوم، ومنبع الفهوم، والبحر الذخار، والعالم العلامة، والحبر الفهامة. إلخ.

ونحن في عصرنا نحتاج إلى أن نحرِّر هذه المدلولات الوصفية، وأن نقتصد في الوصف، ونعطي كل إنسان ما يستحق بلا إسراف أو تقتير، وكما قالوا: «**امدح على قدر الصواب يكثر من الممدوح الصواب**».

ومن ذلك أن هناك فروقًا كثيرة بين مدلولات الألفاظ كالواعظ، والخطيب، والعالم، والمربي، والداعية.

ولكل من هذه الأصناف أوصاف تغلب عليه، وحينما حصل الخلط فيها تنكب الناس الطريق؛ لأنهم أعطوا للوعاظ حقوق العلماء، ووثقوا في الخطباء ثقتهم في المربين، وقدموا القصاصين على الدعاة. فطففوا الكيل والميزان.

إذن، لا بد من وضع تصور واضح لكل صنف من هذه الأصناف ومدلوله الواقعي دون الخوض في التعريفات المعجمية.

فالخطيب:

هو رجل يملك العبارة، والبلاغة والصياغة، وبنيان مجده قائم على تدبيج الخطب وسحر البيان.. وهذه ملَكة ربما يملكها من لا قلب له ولا خلاق له؛ لأنه ليس كل من ملك ناصية البيان يوثَق في دينه، وقد كان لقريش خطباء تصد عن سبيل اللّه، وقد رأينا من خطباء السياسة عجبًا؛ إذ سحروا الجماهير بخطب رنانة لكنهم غدروا بهم وفجروا، وأكثر الشعراء والخطباء يتبعهم الغاوون.

ولذلك فإنه لا يجوز أن نعتمد على الخطباء في كل المواقف أو في فقه النوازل؛ لأن هؤلاء -وما أكثرهم- بضاعتهم الكلام وهم كالشعراء، في كل وادٍ يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون، وقليل منهم ليس كذلك، ويستحق أن يُستمع إليه.

إن كثيرًا ممن دغدغوا مشاعر الجماهير على المنابر والشاشات لا يصلحون للاجتهاد في هذه النوازل، أو ترنوا إليهم الأبصار في الملمات؛ لأنهم نقلة للأدلة بأسلوب خطابي لا أكثر.

الوعاظ:

غلب هذا الوصف على من يجيد الحديث عن الموضوعات التي تتعلق بترقيق القلوب، كالحديث عن الموت وعذاب القبر، والجنة والنار، والتقوى والزهد، وقصص الصالحين.. إلخ.

وهذه موضوعات جذابة تستهوي النفوس، مما جعل كثيرًا من الخطباء يحترفها ليطعِّم بها موضوعه، ولأنها تعتبر منطقة آمنة، بالإضافة إلى نتائجها المذهلة في صفوف البسطاء والعوام، فهي تتناول موضوعات المتكلم بها كثير والعامل بها قليل؛ كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولا يخفى أن هناك قطاعًا عريضًا من الناس يستمع لهذا الصنف من الناس، لا سيما إذا بكى وأبكاهم، وبعضهم يظهر للناس في صورة الزاهد، وأكثرهم حصَّل من وراء ذلك الكثير من متاع الدنيا وزخرفها.

أعرف بعضهم لا يتكلم إلا في الزهد وتربية النفس، وإن القلب ليحار في وصف القصور التي حازها بهذا الكلام، فسكنها بعدما كان طاويًا حافيًا!!

منشأ الإشكال:

وإن كان المطلع على القصور الشاهقة والسيارات الفارهة التي يملكها هؤلاء الوعاظ، أو حصلوها من الكلام في الرقائق يصيبه الذهول، ويفقد الثقة بالعلماء.. فإن هذا لا يعنينا الآن.

ولئن كان هذا الصنف من الوعاظ أكثر الناس شعبية، وصار لهم سلطان على قلوب الناس، فهذا أمر لا إشكال فيه.

إنما ينشأ الإشكال في عدم وقوفهم عند حد قدراتهم العلمية؛ لأنهم -وفي زحمة التفاف الناس حولهم- تراهم يفتون بغير علم، ويهرفون بما لا يعرفون في النوازل السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والتي تحتاج إلى تبحُّر ومهارات تفوق قدرات هؤلاء المساكين من الوعاظ، فتراه يفتي في البورصة، ومسائل التورق والمرابحة، والعمل النيابي، والتحالفات السياسية، وعلاقة المسلمين بغيرهم.. إلخ، فتحصل الكوارث بفتاواهم.

والمستمع العادي المشدوه بخطبة رنانة أداها الواعظ عن التخويف من النار، يظن أنه بين يدي عالم نحرير، قتل قضايا الفقه بحثًا، وأنه على دراية بكل دروب المعرفة كدرايته بخطبة عن التقوى.

إنه مما يؤسف له أن الجماهير تقلد واعظًا مسكينًا في نوازل تحتاج إلى جهود مجامع علمية لتخرج بفتوى صحيحة!

العلماء:

هم من عرفوا الدليل وطريقة إعماله واستخدامه، والاستشهاد به، وليس بالضرورة أن يكونوا خطباء، وكثير من الدكاترة في جامعة الأزهر -مثلًا- من هذا الصنف، لديه تفاصيل التفاصيل في المسألة اللغوية والشرعية، وهو فارس الميدان في مدرجات الجامعة، لكنه -ربما- لا يُحسِن أن يقدِّم خطبة على المنبر، قد يجيدها واحد من طلابه، أو طلاب طلابه!

وكان وصف العالم يدل قديمًا على من علم وعمل بما علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ولكنه الآن يكثر أن ينصرف على من استوعبوا العلم في مسألة من المسائل أو علم من العلوم.

ولا شك أن انغماس هؤلاء العلماء في تحرير بعض المسائل الفرعية، جعلهم ينعزلون عن واقع الدعوة العملي، فهم يعيشون في توابيت عالم التنظير التي صنعوها لأنفسهم، وغابوا عن المشهد -وهم العلماء- في الوقت الذي تصدر فيه الوعاظ والخطباء، وساروا بالجماهير في الطرق التي يحسنونها!!

حقًّا! إنها المأساة حين يتصدر من لا يعلم لأنه الأخطب!! أو لأنه يجيد البكاء والإبكاء!، ويتوارى مَن يعلم بسبب جموده أو عجزه عن توصيل علمه إلى الناس؛ لأنه تعلم العلم، ولم يتعلم صناعة توصيله إلى قلوب وعقول الجماهير، فنشأ بسبب جرأة الأول الضلال والانحراف، وبسبب جمود الثاني التخلف والجفاف.

المربون:

وللهروب من هذا الجفاف والتيبس الدعوي ظهرت الحاجة لدور المربي الذي يرمِّم خلل النفوس بالتوجيهات والسلوك ورياضة الروح، لكنَّ البعض زاد عن المطلوب، وزهد في الدليل، وتطرَّف في التطبيق فحصلت الانحرافات، كما عند كثير من الصوفية.

لكن يبقى القصور واضحًا ومخيفًا بسبب ضمور الجانب التربوي عند كثير من المشتغلين بالعلم، لأنهم حصلوا علمًا غزيرًا في أوعية صدِأة وفي الأثر: «تفقهوا قبل أن تسودوا»[1]

وبعضهم عظمت عليه نفسه، وتضخمت وتورمت، فبات لا يريد أن

(١) الأثر من قول عمر بن الخطاب ﷺ، أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٩).

يسمع كلمة نقد أو تصحيح أو اعتراض.

وآخر يستحيي أن يقول: لا أعلم، فدرج على التسرع في الفتوى، ولم يترب على قول: لا أدري، وهذا يمُنُّ بعلمه وعمله، وذاك أصابه الغرور.. إلخ هذه البلايا القاتلة.

قال صديق حسن خان: «لا بد من تزكية الطالب -أي: طالب العلم- عن الأخلاق الردية، وهي -أي: التزكية- متقدمة على غيرها كتقدم الطهارة -أي: على الصلاة-، فكما أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب؛ كذلك العلم لا يدخل القلب إذا وُجد فيه كلابٌ باطنية، وكانت الأوائل يختبرون المتعلم أولًا، فإن وجدوا فيه خُلقًا رديًا منعوه لئلا يصير آلةَ الفساد، وإن وجدوه مهذبًا علّموه، ولا يطلقونه قبل الاستكمال؛ خوفًا على فساد دينه ودين غيره»[1]

الداعية:

هو صاحب دعوة يقوم بحقها الذي يتطلبه الموقف، وصاحب قلب موجوع بقضيته، تكاد نفسه تذهب حسرات بسبب انحراف الناس، ولعله باخع نفسه ألا يكونوا مؤمنين!

وهو إن كان خطيبًا كانت خطبته هادفة روحيًا وحركيًا، وإن كان صانعًا، أو تاجرًا أو فلاحًا، أو مدرسًا أو قاضيًا، أو..، كان أفضل سفير لهذا الدين، يدعو بالمقال ويُثنّي بالفِعال، فيكون كلامه دعوة وسلوكه دعوة، وهكذا كانت الرسل وكان المصلحون، (قرآنًا يمشي على الأرض)؛ لأن

---

(١) أبجد العلوم (١/١٣٤).

الأمة تحتاج إلى من يترجم معاني الإسلام سلوكًا عمليًا بين أُناس كرهوا الإسلام قبل أن يعرفوه؛ بسبب حقد الحاقدين وجهل الجاهلين.

إن المصلحين عبر التاريخ كانوا أصحاب قضية لا تفارق خيالهم واهتمامهم، وهي القضية الأولى في حياتهم، ومن هؤلاء مؤمن آل فرعون، ومؤمن آل ياسين، وسحرة فرعون، وماشطة ابنته، ولقمان الحكيم، والصحابة الكرام وتابعوهم بإحسان الذين نشروا الإسلام بالمعاملة الحسنة في شرق آسيا ومجاهيل إفريقيا.

صار هؤلاء -وإن لم يكونوا خطباء- دعاة من الطراز الأول، وإن كانت مهنتهم الأصلية التجارة أو النجارة أو الحدادة، أو كانوا أطباء أو مهندسين أو فلاحين.. إلخ.

أصناف المنتسبين للعلم

كما أن الناس يتفاوتون في الصفات والأخلاق والأهداف، وليسوا على درجة واحدة، فإن العلماء كذلك.

ويمكننا أن نلاحظ -بالاستقراء- أن الذين يمثلون الدعوة على أصناف خمسة رئيسة، وهي كما يلي[1]:

١- علماء سلبيون:

هم قوم صالحون في أنفسهم، لكن لا علاقة لهم بقضايا الناس، فانسحبوا باختيارهم من ميدان الإصلاح والتغيير تاركين الميدان لدعاة السوء، ولهم أدلتهم التي تصب في تكريس فقه الهروب من المسئولية.

وتراهم يتذرعون بأحاديث الفتن لتكون غطاءً شرعيًا لهذا الهروب! وتارة يسلكون سبيل التصوف وتزكية النفوس، متجاهلين أن ثمرة التزكية هي الحركة التغييرية الإصلاحية بين الناس.

فهم لا يهتمون بالدعوة، ولا يقومون بحقها عليهم؛ لأنهم لا علاقة لهم بالأحداث الجارية والنوازل المتعاقبة على الأمة.

نعم، هو فقيه لكنه تائه في نفسه يقوم بدور تدويخ الأمة في فقه الذبائح، بينما الأمة تُذبح ذبح الخراف ليل نهار.

---

(١) انظر كتاب: أخلاقنا الاجتماعية للسباعي.

وهذا الصنف لا يمثل خطرًا على الباطل والمبطلين، بل ربما تجد المبطلين يغدقون عليهم العطايا، ويطلبون منهم الدعاء والبركة!

٢- علماء جامدون:

يقفون عند ظاهر النص، ولا يخرجون عن شروح الشروح وحواشي الحواشي، ومتون القدماء، يكرِّسون للعلمانية في بلاد المسلمين؛ لكونهم -بجمودهم- يُشعِرون الناس بعجز الإسلام عن مواكبة التطورات الحياتية المختلفة.

وقد نعى ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على علماء عصره الجمود الذي حنطوا فيه الشريعة والدين، وحمَلهم نتيجة لجوء حكام عصرهم إلى استيراد القوانين والتشريعات التي قصُر اجتهاد العلماء عن الوفاء بها.

وهؤلاء يقدمون الإسلام -إذا قدموه- للناس في صورة تقشعر من هولها الجلود، وترتعد من قساوتها الفرائص، وتوجل من ذكرها القلوب!

إنه الإسلام الذي يدعو إلى الجبرية في العقيدة، والشكلية في العبادة، والسلبية في السلوك، والسطحية في التفكير، والحرفية في التفسير، والظاهرية في الفقه، والمظهرية في الحياة!!

إنه الإسلام الجامد كالصخر، الذي لا يعرف تعدد الآراء، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات، ولا يقر إلا الرأي الواحد، ولا يسمع للرأي الآخر، ولا للوجهة الأخرى، ولا ينظر إلى تغير المكان والزمان.

إنه الإسلام الجزئي الذي لا يكاد يُرَى إلا في التشريع، ولا يرى التشريع إلا الحدود.

وهؤلاء العلماء الجامدون هم من أغروا الحكام بحرق كتب ابن حزم، وسجن ابن تيمية؛ لأن فتاويه ليست على طراز متونهم الجامدة.

وهم هم من اتهموا الدعاة المعاصرين بابتداع دين جديد؛ لأنهم خرجوا على مألوف الفتاوى القديمة التي كانت لعصور خلت وولت، وهم يصدقون بجمودهم على قول من يقول: «إن الإسلام لا يصلح لكل زمان ومكان»!

ترى أحدهم عالمًا محيطًا بالشاردة والواردة من أقوال علماء مذهبه، وينزلها منزلة النصوص المقدسة.

فهو يمنع -مثلًا- سفر المسلمين للخارج محتجًا بحديث النهي عن الإقامة بين ظهراني المشركين على كل حالٍ، ويسوِّي بين حالة السلم والحرب، متجاهلًا المتغيرات التي جعلت من العالم قرية صغيرة، ومتجاهلًا ثورة تبادل المعلومات والاتصالات!

وهذا الصنف أيضًا لا يمثل خطورة على الفساد والمفسدين، وليس له موقع على خريطة الصراع بين الحق والباطل!

٣- علماء منخدعون:

هم أناس طيبون، وربما كانت الصلة بينهم وبين ربهم على أحسن حال، ولكنهم لا يتمتعون بالفطنة اللازمة لتفويت الفرص على المبطلين، فيُستَخدمون - بانخداعهم- لضرب الحق من حيث لا يشعرون.

وفي أمثال هؤلاء يقول الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «إن من شيوخي من أستسقي بهم المطر، لكن لا أكتب عنهم الحديث».

فهؤلاء وإن كانوا -بصلاحهم- ينزل المطر، لكنهم -بانخداعهم- لا يصلحون للأخذ عنهم!

ومن أمثلة ذلك: شغل بعض العلماء -من هذا الصنف- بالحديث عن حكم التختم بالذهب والفضة للرجال أو النساء، ولا يتكلمون بقليل أو كثير عن حكم نهب ثروات الأمم ومعادنها لصالح طغمة حاكمة، ورجال أعمال فاسدين!

وهذا عالم مسكين، شغلوه بالحديث عن حكم الأكل مما أمسك كلب الصيد المُعلَّم أو غير المُعلَّم، ولم يعطِ اهتمامًا للحديث عن حلّ وحرمة اصطياد موارد الأمة على يد الخطافين والنهابين من كلاب صيد ثروات الأمة وأحلامها.

وهذا آخر: يفتي بوجوب ترك فلسطين لليهود؛ لأنها صارت باحتلال اليهود لها دار كفر، والهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام واجبة!!، فما أسعد اليهود بمثل هذه الفتوى!

مثال للتأمل: في إطار الحرب على القيم والأخلاق، تجد سدنة الفساد يسألون هؤلاء العلماء عن صحة حديث أم عطية في الختان، كأنهم ثابوا إلى الحق مذعنين، فيجيب هذا العالم المخدوع متسرعًا بذكر ضعف سند الحديث، وهذه إجابة المنخدعين.

ولو كانوا فَطِنين لعلموا أن المفسدين يستغلونهم في شرعنة الفساد؛ لأن الذين يسألونهم هذا السؤال هم المنادون برفع الوصاية عن الفتاة، ونزع حجابها، ثم جاءوا يجرمون الختان، واعتمدوا على أقوال العلماء بضعف هذا الحديث.

فلو كان لدى هؤلاء العلماء فطنة في الجواب لأجابوهم بصحة أحاديث

أخرى في الختان.

وكان عليهم أن ينتبهوا إلى أن إثارة قضية الختان في هذا الوقت وعلى يد هؤلاء المتحللين جزء من المؤامرة والحملة على العفة في المجتمع المسلم، ولا يمكن أن يكون السؤال بريئًا من قِبل هؤلاء.

ومن هذا الصنف: **العلماء المدجنون** الذين خدعهم نابليون بونابرت، وأفهمهم أنه يحب الإسلام، وما جاء إلا لإرساء دعائم السلام، وكان يعطي لهؤلاء العلماء كسوة شتوية وصيفية، واحتفل معهم بالمولد النبوي. فلانوا له وطيّبوا الكلام، حتى كشفه لهم كبار العلماء كالشيخ الشرقاوي وعمر مكرم، فقلب للإسلام ظهر المجن، فثار عليه العلماء، وقتل منهم من قتل، ودخل الأزهر بالخيول وضرب الجامع العتيق بالمدافع من أعلى جبل المقطم..

فعلى العالم أن يكون يقظًا، وألا يُستخدَم من حيث لا يدري لإقرار باطل أو الإعانة عليه.

ويُذكَر أن رجلًا جاء يسأل ابن عباس -رضي الله عنهما-: هل للقاتل توبة؟ فأجاب: لا، وجاء آخر يسأله نفس السؤال فأجاب بنعم، فتعجب الحاضرون، فقال ابن عباس: الأول يريد أن يقتل، وجاء يسأل عن رخصة في القتل قبل أن يقتل، فأردت أن أمنعه وأظهر له شناعة فعله لكي يرتدع عما نوى، أما الآخر قتل بالفعل وجاء باكيًا نادمًا، فمن يحول بينه وبين التوبة؟![1]

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٩٩) والطبراني في الكبير (١٠٧٤٢)، قال الهيثمي (٧/ ٢٩٧): رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني.

واعلم أن المنخدعين من العلماء يستخدمهم المبطلون ويغررون بهم للوصول إلى مآربهم الخبيثة، وقد أمنوا غوائلهم بالتغييب والتغرير.

٤- علماء دنيا:

وهذا الصنف هو أبرز من نحاول كشفه للناس في هذا البحث، وكشف هؤلاء وفضحهم عبادة شرعية، وقد نزلت سورة تسمى بالفاضحة، وهي سورة براءة، وقد أباح الإسلام لنا ذكر الفاجر بفجره؛ لأجل تحذير الناس منه.

وهذا الصنف منافقٌ في صورة عالم، يسعى للدنيا، ويريق لها ماء وجهه، ويسخِّر لها علمه وقلمه ولسانه.

هم ليسوا صرحاء؛ لأنهم راحوا يطلبون الدنيا، فلما فاتهم تحصيلها بوسائل أهل الدنيا، جعلوا يطلبونها بالدين، ولو طلبوا الدنيا بالدنيا لكان أشرف لهم! ولو وجدوا سبيلًا يحقق لهم منافع دنيوية غير سبيل الدين لسلكوها، وفي هؤلاء قال مالك بن دينار: «**لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إليَّ من أن أطلبها بالدين**»[(١)]

ولا مانع لدى أحدهم من تحريف الكلم عن مواضعه، وبيع الفتيا والتزلف بها لمن معه المال أو السلطان، فهو يأكل على كل مائدة، قيمة الدليل عنده بقدر ما يدر عليه من مال أو جاه!

وهذا الصنف هو داهية الدواهي، ولمثله كتبت هذه السطور، قل فيهم ما تشاء من أوصاف الفساد، فهم لصوص وقطاع طرق وتجار دين. إلخ.

(١) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٢٤٢).

قال عمر رضي الله عنه «إذا رأيتم العالم محبًّا للدنيا فاتهموه على دينكم؛ فإن كل محبّ يخوض فيما يحب».

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «علماء هذه الأمة رجلان: رجل آتاه الله علمًا فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعًا، ولم يشتر به ثمنًا، فذلك يصلي عليه طير السماء، وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون، يقدم على الله - عز وجل - يوم القيامة سيدًا شريفًا حتى يوافق المرسلين، ورجل آتاه الله علمًا في الدنيا فضن به على عباد الله، **وأخذ عليه طمعًا واشترى به ثمنًا**، فذلك يأتي يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار، ينادي منادٍ على رءوس الخلائق: هذا فلان بن فلان، آتاه الله علمًا في الدنيا فضنَّ به على عباده، وأخذ به طمعًا، واشترى به ثمنًا، فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس»[1]

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «إني لأرحم ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالمًا تلعب به الدنيا».

فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخسّ حالًا وأشد عذابًا من الجاهل، وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة.

فكم اليوم من علماء الأمة هم علماء للدين وللآخرة، وليسوا علماء دنيا وطلاب فتنة وسوء؟

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٧١، رقم ٧١٨٧) قال المنذري (١/ ٥٦): في إسناده عبد الله بن خراش وثقه ابن حبان وحده. وقال الهيثمي (١/ ١٢٤): فيه عبد الله بن خراش ضعفه البخاري وأبو زرعة وأبو حاتم وابن عدى ووثقه ابن حبان.

هذا أحدهم يمتدح حاكمًا بعد إلغائه المحاكم الشرعية التي كانت تحكم بالشريعة الإسلامية، وقام باعتقال المنادين بتحكيمها، ووصف العالم هذه الإجراءات بأنها خطوة تقدمية.

ومنهم من يفتي للفتنة وخدمة السياسة الحزبية المقيتة، أو يفتي بما يخدم أعداء اللَّه ورسوله والمؤمنين من الطامعين والمحتلين، أو يُقعِد الناس عن الفرض الواجب (الجهاد) فقط؛ لأن الحاكم لا يريد ذلك!

إن وُعاظ السلاطين وعلماء السلطان هم من يخدِّرون الأمة، ويثبِّطون الهمم والعزائم بما ينسجونه من فتاوى ما أنزل اللَّه بها من سلطان، وبما يطوعونه من أحكام لتوافق هوى حاكم ظالم، أو تدعم سلطانًا جائرًا، أو تغطِّي على جُبنهم وإخلادهم إلى الأرض!

بات من حق المؤمنين -وقد صار الأمر إلى هذا الحد- أن يحاكموا هؤلاء وفق العمل بالحق، والانتصار له، فمن تشبث منهم بالدنيا والمال والجاه وانصرف إلى ذلك منها فهو عالم دنيا، وليس له من الدين شيء، ومن حجَب عن الناس أو أفتاهم بما يناقض القرآن والسنة، وأفتى بما يخدم هواه أو هوى الطغاة والمنحرفين، فهو على وجهه، يُكَبُّ في النار يوم القيامة في أسفل درك في جهنم!

إنهم طواغيت عاونوا طواغيت ابتُليت بهم الأمة، وأبوا إلا الصد عن سبيل اللَّه ومعاداة العاملين لدين اللَّه..

وهذا الصنف هو والظالم سواء، وربما نافس المجرمين في إجرامهم، وتفوق عليهم، فهو جزء من الباطل نفسه.

وهؤلاء وهؤلاء في مواجهة دائمة مع أئمة الهدى من علماء الأمة الربانيين.

٥- علماء ربانيون:

هم قديسون يعيشون بين الجماهير، أوقفوا أنفسهم وأعمارهم وأموالهم على نصرة الدعوة، لا يطلبون دنيا وسلطانها بل يهربون منها.

لا يترخصون في الحق، وإن خالفهم الناس جميعًا، وعلى رأسهم السلطان ورجال المال.

هم مصابيح الهدى وكنوز الإيمان ورمانة الميزان، بدونهم تصبح الديار بلاقع ويهلك الحرث والنسل، فما أحوج زماننا اليوم لهذا الصنف من العلماء!

نعم. هم العلماء الذين يحرسون الإسلام. . المؤتمنون على دين الله، الداعون الشعوب والحكام لتطبيقه.

ولذلك كانوا في مقدمة الذين أصابتهم المحن، ونزلت بهم الشدائد، فخرجوا منها ظافرين ظاهرين مصداقًا لقول النبي ﷺ: «لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[(١)]

وتمثل هؤلاء العلماء قول النبي ﷺ: «ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث دار؛ ألا إن كتاب الله والسلطان سيختلفان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يرضون لأنفسهم ما لا يرضون لكم، إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم»، قالوا: وما نفعل يا رسول الله؟ قال: «كما فعل أصحاب موسى، حُملوا على الخشب، ونُشِرُوا بالمناشير، فوالذي نفس محمد بيده، لموت في طاعة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).

خير من حياة في معصيته»[١]

وهذا الحديث من حيث الصنعة الحديثية في سنده ضعف، ولكن ضعفه ليس شديدًا، والمعاني التي تضمنها الحديث في مجملها صحيحة، حيث تدور على التحذير من أعطيات السلطان إذا كان يُراد به شراء الذمم لقول ما لا يرضي الله، والتوصية بكتاب الله والتمسك به، وأنه سيكون أمراء ينحرفون عن منهج الله، فالحذر الحذر من متابعتهم والسير في ركبهم، وكل هذا ثابت بنصوص أخرى صحيحة.

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا صَلَّوْا»[٢]

قال النووي: « (وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ) مَعْنَاهُ: وَلَكِنَّ الْإِثْمَ وَالْعُقُوبَةَ عَلَى مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِزَالَةِ الْمُنْكَرِ لَا يأثم بمجرد السكوت، بل إنما يأثم بالرضى به أو بأن لا يَكْرَهَهُ بِقَلْبِهِ أَوْ بِالْمُتَابَعَةِ عَلَيْهِ»[٣]

وقد تمثل أئمة الهدى هذه الكلمات في مواجهة الحكام الظالمين الذين تولوا أمر الإسلام حينًا من الدهر، فما استطاعوا إخضاع هؤلاء العلماء

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨١٠) وقال: حسن صحيح. والحاكم (٦٢٤٢) وقال: صحيح الإسناد. وضعفه الشيخ الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (ص ١١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٤).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٤٣).

الذين أبوا إلا قولة الحق وثبتوا على مواقف الصدق.

كيف لا والقرآن يحذرهم ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

والرسول ﷺ يحثهم قائلًا: «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله»(١)

هم يقولون للظالمين ظلمتم.. وللمفسدين أفسدتم. وللعاصين لقد عصيتم..

يصلحون ما فسد، ويقوّمون ما اعوج.. لا يخشون في الله لومة لائم.

لا يهابون سلطانًا جائرًا.. ولا حاكمًا جبارًا.. ولا يسكتون عن حق إذاعته واجبة، متمثلين قول إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل: «**إذا تكلم العالم تقية، والجاهل يجهل فمتى يُعرف الحق؟**»(٢)

لا يكتمون حكمًا شرعيًا في قضية..

سواءً تعلقت بشئون الدولة، أو بتصرفات حاكم من الحكام؛ لأنهم يعلمون أن التحذير من ذلك جاء من قِبل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤٨٨٤) وصححه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٣٦٧٥]، الصحيحة [٣٧٤]، الترغيب والترهيب [٢٣٠٨].

(٢) طبقات الحنابلة لأبي يعلى (٢/ ٢٧٩).

يدفعون الضريبة وحدهم:

ولا شك أن عالم الدين يكتسب ثقةً أكبر في عيون تلاميذه ومحبيه، بل والمجتمع ككل، كلما كان مستقلًا عن السلطان، وبعيدًا عن دائرة الحكم الجهنمية وشبكاتها العنكبوتية، التي تؤثر بشكل كبير وسلبي على استقلالية ونزاهة القريبين منها، لاسيما عندما يكون هذا القريب من الحاكم عالمًا دينيًا أو فقيهًا شرعيًا، رأس ماله هو العلم المنزَّه عن أيِّ هوًى، والمستقل عن أي شخصٍ أيًا كان نفوذه وسلطانه.

إن مما قد يُفقِد العالِم اعتبارَه العلمي وهيبتَه أمام المجتمع قبولُه أن يكون تابعًا ضمن أدوات الحاكم، يتلاعب بها كيفما شاء لخدمة أغراضه، وحفاظًا على عرشه.

وهاك نموذج لنبيٍّ فريد في كل شيء، بداية من مولده، ومرورًا باسمه، وملبسه ومأكله، وختامًا بثباته على الحق حتى الموت، بل وبعد الموت، ألا وهو سيدنا يحيى بن زكريا -عليهما السلام-.

وكما هو معلوم، وُلد سيدنا يحيى لنبي اللّه زكريا بعد سنّ اليأس، وهو أول من سُمِّي بهذا الاسم، ومعروفٌ عنه أنّه كان يأكل من ورقِ الشجر، ويلبس وَبَر الحيوانات؛ تفاديًا لأكل الحرام.

وفي زمانه ذلك كان يوجد ملك يريد أن يتزوج أحد محارمه، وفي رواية أنها بنت أخيه، وفي رواية أخرى أنها ربيبته، أي: بنت زوجته من رجل آخر، وهنالك آخرون يقولون: إنها زوجته، ولكن طلقها ثلاثًا، وصارت لا تحل له إلا بعد أن ينكحها رجلٌ غيره.

والشاهد في الموضوع: أن جميع الروايات تتفق على حرمة زواجها منه،

ورفض سيدنا يحيى -عليه السلام- تحليل هذا الزواج، وقالها بملء الفم للملك: «إنها لا تحل لك»، وطلبت البغي الخاسرة رأس سيدنا يحيى -عليه السلام- هديةً لها؛ لتمكِّن الملك من نفسها، فاستجاب لها الملك، وقدَّمه لها في طبق، يعني: ذُبح يحيى، واستُشهد في سبيل حكم شرعي من جزئيات الشريعة.

أما هذه الشقية فكان عاقبتها هي أن خُسفت بها الأرض، أما زوجها وعلماء السلطة والعوام الذين لم ينصروا سيدنا يحيى -عليه السلام- فسلَّط اللَّه عليهم ملكًا جبارًا وهو بختنصر فقتلهم شر قِتلة.

ويتكرر المشهد عندما صلب الطاغية الحجاج بن يوسف عبداللَّه بن الزبير -رضي الله عنهما- وأتى لأم الشهيد يشمت عندها، فأفحمته بنت الصدّيق -رضي الله عنهما- بقولها: «إنَّما أهديَ رأس سيدنا يحيى -عليه السلام- إلى بغي من بغايا بني إسرائيل» !!

ومن هؤلاء أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وابن تيمية والعز بن عبد السلام، والأوزاعي، والبخاري والنووي، ومحمد بن عبد الوهاب، وحسن البنا وسيد قطب، وغيرهم كثير.

لقد فرض اللَّه -سبحانه وتعالى- على المؤمنين الجهاد في سبيله؛ دفاعًا عن الدين والأرض والعِرْض والمال والنفس.

فكم مِن متفقه لا يخدم بعلمه الدين والبشرية، وإن لم يكن في خدمة دين اللَّه وخليفته في الأرض الذي سخَّر له كل شيء، فلِم كان للتعلم فضل ومنقبة؟!

هم ضحية التآمر والخذلان:

والعجيب أن الأنظمة الفاسدة تستخدم الأصناف الأربعة السابقة من العلماء لمحاربة هذا الصنف الأخير، فيقف هؤلاء العلماء الصادقون وحدهم في الجهة المقابلة لكل هؤلاء (السلبيين والجامدين، والمنخدعين وعلماء الدنيا)، ومعهم سلطان الباطل الذي يدير المعركة ضدهم! لأن هذا الصنف وحده هو من يمثل الخطر الداهم عليهم، أما الأصناف الأخرى من العلماء فيسهل استيعابها وتجنيدها لتتبنى أهداف الباطل من حيث تشعر أو لا تشعر.

فهم بين طغاة يتآمرون عليهم وينكّلون بهم، وبين علماء يخذلونهم ويكشفون ظهورهم في معركة الحق والباطل!!

فمثلًا: إذا انتضى هؤلاء العلماء الربانيون للمطالبة بتحكيم شرع الله - تعالى- في بلاد المسلمين، تجد المفسدين -عبر التاريخ- يهرعون إلى جنودهم من العلماء ليقوموا بالأدوار الآتية:

السلبيون يقولون: هذا زمان الفتن، وحكم الشريعة يُسأل عنه الحاكم، ونحن مهمتنا الصلاة وتعليم فقه الطهارة والصيام والحج!

والجامدون يقولون: هذه النوازل لم يكن لها مشابه في صدر الأمة، فلا يعنينا الحديث فيها!

والمنخدعون يقولون: الشريعة مطبقة؛ لأن الأذان قائم، وهكذا الصلاة والحج والناس يقولون: لا إله إلا الله!

جاء أحدهم يلقن الشيخ سيد قطب الشهادة، وهو يُساق ظلمًا إلى حبل

المشنقة قائلًا: يا شيخ سيد: قل: لا إله إلا اللَّه، فابتسم الشهيد سيد قطب قائلًا: يا هذا، وهل جئت هنا إلا من أجلها!

يعني: أنا هنا أشنق لأجل لا إله إلا اللَّه، أما أنت وأمثالك فتأكلون الفتات على موائد اللئام أيضًا بلا إله إلا اللَّه!

أما علماء السلطان فقد قاموا بدور أشرس في النكاية والتنكيل بالصادقين، وشرعنة فساد المفسدين، وباتوا يُخرِّجون الفتاوى التي تتهم المطالبين بتحكيم الشريعة بأنهم خوارج، وأنهم كلاب أهل النار، وقتيلهم شر قتيل تحت أديم السماء؛ لأنهم الأعداء الحقيقيون للوطن، قائلين للطغاة: اقتلوهم ونحن نُحاسَب عن دمائهم، كالعالم الذي أفتى بإهدار دم الإمام أحمد قائلًا للأمير: «اقتله ودمه في عنقي»![1]

عالم الملة وعالم (ما يطلبه المستمعون):

ثم إن العلماء من حيث الهم والهدف المحرِّك لهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الأول عالم الدنيا من سلطة وجاه ومال، وكلنا يعرفه، ويبقى قسمان آخران وهما عالم الملة، وعالم العامة.

فعالم الملة يشغل نفسه بسد الثغرة، وتجديد ما اندرس من تعاليم الإسلام في الزمان والمكان الذي يعيش فيه، فهو يُعنَى بثوابت الدين وما يخدم بقاء الملة، فيقف على كل ثغر منهدم، وقضيته العليا هي نصر الملة والدين، وهو كما وصفه الحديث الصحيح: **«كلما سمع هيعة طار إليه»**[2]، ولسان حاله قول الصديق رضي الله عنه **«أينقص الدين وأنا حي؟!»**.

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٠٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٩).

أما **عالم العامة** فهو يختار الموضوع وهمّه الشعبية، فليس في بؤرة اهتمامه ما تحتاج الأمة إليه من مسائل، بل يتحدث في موضوعات من شأنها أن تكثر سواد شعبيته، وإن لم تكن ذات أهمية، فيتغافل عما هو أولى منها من مسائل الأصول والثوابت والنوازل، وربما يستغرق ويستطرد في الحديث عن موضوع ليس لشيء إلا لأنه يتقنه فقط، وإن كان لا يقتضيه المقام أو يتطلبه الحال.

فكثير من هؤلاء العلماء -للأسف الشديد- يبحثون عن الشعبية وعدد المريدين والمعجبين، دون القضية الدعوية التي يتطلبها الموقف.

فمنهم من يجيد الحديث عن الرقائق، أو فقه الحيض والنفاس، وتفسير الأحلام، والعلاج بالقرآن، وما شابه، وهي علوم يتم تناولها في الظل الظليل، وهي منطقة آمنة جدًّا من بطش الطغاة، مع ما تثمره من وفرة الأتباع، كما أنها موضوعات تستهلك طاقات الجماهير وتُدِيخهم بشكل عجيب، وبالتالي تظل الحاجة إلى الشيخ دائمة وشعبيته في ازدياد كشأن مفسّر الأحلام، والأحلام لن تنتهي أبدًا طالما ينام الناس ويحلمون-!

كما أن هذه الموضوعات لا تصادم مصالح الظالمين، وهؤلاء قال فيهم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأكثر كلامهم اليوم في موسى والجبل وزليخا ويوسف، ولا يكادون يذكرون الفرائض ولا ينهون عن ذنب».

حقًّا: إنه من مظاهر غيبة الإخلاص.. ومما عمت به البلوى: عدم اختيار الموضوع المناسب لما عليه حال الأمة، فيترك بعض العلماء الحديث عن الثوابت، ويتكلم في الفرعيات، فيطيل ويطنطن في أمور لا ينبني عليها عمل، لأنه يختار الموضوعات التي يدغدغ بها المشاعر ويحقق بها شعبية، وإن لم تكن تحتاج الأمة إليها، أو لم يحن وقتها

بعدُ، والعالم كالطبيب عليه أن يبدأ بعلاج الأخطر فالأخطر من الأمراض.

إن اللبيب إذا بدا من جسمه مرضان مختلفان داوى الأخطرا

وهؤلاء ربوا جمهورًا عريضًا تم حجبه عن قضايا أمته.

وإذا لم يجد هؤلاء مدخلًا يلفت انتباه من أرادوا اصطياده، عمدوا إلى النوادر والغرائب والشوارد ليختلوا بها الناس فيضربوا الأدلة ببعضها ليصلوا بذلك إلى عرَض الدنيا، أو ليلفتوا نظر الناس إليهم، ويصير كلام الشيخ حديث الساعة، ومثله من يثير الحديث عن رضاع الكبير، وملك اليمين، وصوت المرأة.. إلخ، في الوقت الذي يحتاج فيه المسلمون إلى أن يلتفوا حول الثوابت التي تتعرض لحرب إبادة!

وقد روى أحمد وأبو داود: «نهى رسول الله ﷺ عن الأغلوطات»[(١)]

وأراد المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها، فيهيج بذلك شر وفتنة، وإنما نهى عنها؛ لأنها غير نافعة في الدين، ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع.

قال الأوزاعي: «شذاذ المسائل وصعابها، واحدة الأغلوطات أغلوطة، وهي التي يغالط بها، وتجمع أيضًا على أغاليط؛ لقول حذيفة عن عمر حدثته حديثًا ليس بالأغاليط».

قال الحسن البصري: «شرار عباد الله ينتقون شرار المسائل يعمون بها عباد الله».

وقال مالك: «قال رجل للشعبي: إني خبأت لك مسائل، فقال: خبئها لإبليس حتى تلقاه فتسأله عنها».

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٧٣٧) وأبو داود (٣٦٥٦).

وقال مالك: «العلم والحكمة نور يهدي اللّه به من يشاء، وليس بكثرة المسائل، وقال مالك أيضًا: قال بعضهم: ما تعلمت العلم إلا لنفسي، ما تعلمته ليحتاج إلي الناس[١]

كثير هم الذين يتنطعون ويتعالمون، ويتحذلقون، ويشغلون الأمة بما لم يقع ليصرفوها عن قضاياها الرئيسة من إقامة الدين، ومجابهة الماكرين، وانتزاع حقوقها من يد الغاصبين.

ونحن نقول لهذا الصنف من العلماء: خذ من حيز اهتمامات الأمة على قدر قضيتك التي تتقن الحديث عنها.. وأفسح المجال لغيرك حتى يسد الثغر مكانك إن كنت لا تتقنه.

واعلم أخي أن البلايا لا يكبر عليها أحد، ولا تحترم أسماءً ولا أنسابًا، والأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج، فلا تنخدع بالبهرج عن الجوهر.

وكم رجل في جسمه روح ضيغم وكم أسد أرواحهن كلاب[٢]

بين المجامع الفقهية وعلماء الشعبية:

هناك نوازل شرعية في كل مجالات الحياة، ربما صارت أكبر -بل هي أكبر بالفعل- من جهد عالم فرد مهما كان تعمقه ونجابته.. وكما أن الداء العضال يحتاج الطبيب فيه لاستشارة غيره من الأطباء، فكذلك المسائل العلمية والنوازل والمستجدات الحياتية.

---

(١) انظر: الآداب الشرعية - الآداب الشرعية والمنح المرعية- محمد بن مفلح بن محمد المقدسي- (٢/ ٧٤) فصل (في النهي عن الأغلوطات والمغالطة وسوء القصد بالأسئلة).

(٢) البيت للمتنبي، انظر شرح ديوان المتنبي للواحدي، (٢/ ٢١٤).

وكل علم له مختصون، ولكل تخصص فروع وبين الفروع فروع. وهكذا، وفوق كل ذي علم عليم.

ولكي يتمكن العالم من إصدار الفتوى الصحيحة، فإنه ربما يحتاج إلى سؤال علماء النفس أو الاقتصاد، أو البيئة أو الجيولوجيا، أو غيرها، فأنشئت المجامع الفقهية، والتي تبحث النازلة من كل وجوهها، وتسأل المختصين في كل المجالات ذات الصلة بموضوع الفتوى لتخرج على الأمة برأي قاطع في هذه النوازل والمستجدات.

لكن هذه الآراء الصادرة عن مختصين، ربما يكنسها وينسفها واعظ مسكين، وقد لا يصلح أن يكون تلميذًا على أعتاب من أخرجوا فتيا المجمع، فهو ليس متخصصًا في شأن هذه النازلة أو تلك، وذلك لجهله أو استكباره عن الاعتراف بجهله، وإن كان هو صاحب الشعبية الجارفة المفتونة بأدائه الوعظي أو الخطابي.

ولأنه الأشهر والأكثر شعبية، ولكونه نجمًا على الشاشات وصفحات المجلات، أو لأنه بوق للسلطة، تراه يتعالى عن الأخذ بما أنتجته العقول العلمية المتخصصة المجتمعة في المجامع الفقهية، وبالتالي يكون قد أساء استخدام شعبيته، وتسبب في تضليل الناس!

إنه بنجوميته أشهر من علماء المجامع الجهابذة، والذين هم أدرى بالقضية محل الفتيا منه ألف مرة، وهو-وإن كان خطيبًا مفوهًا أو واعظًا مشهورًا- لا يصلح أن يكون تلميذًا عند من شهرتهم لا تعدو عشر شهرته بين العامة والغوغاء.

فما بال الواعظ أو الخطيب يتكلم عن مسائل في التورق، والتمويل

العقاري، وتأجير الأرحام، ونقل الأعضاء، والموت الإكلينكي، أو يفتي في مسائل تتعلق بالمواثيق الدولية والمعاهدات، وعلاقة الأمم والحضارات، أو ما يتعلق بالدساتير والحريات وما شابه ذلك، وهو مسكين لا يجيد الحديث إلا في عذاب القبر وأهوال القيامة، أو ربما فقه الطهارة وأحكام الطلاق؟!

وعلى أمثال هؤلاء ألا يستكبروا، بل يجب عليهم أن يتبنوا رأي علماء المجامع، ويبنوا عليه، ويوجهوا الناس إلى هذه الآراء العلمية، وألا يضللوا هذه الشعوب أو يخونوها، وأن يلزموا حدهم، ويعرفوا قدرهم، ويقروا بتقصيرهم، لكنهم استكبروا عن قول: لا أدري!

ونحن جميعًا نعلم قدر سيدنا موسى عليه السلام، وحين سئل: من أعلم أهل الأرض؟ فأجاب بأنه هو أعلم أهل الأرض، فهو الكليم النبي الرسول، ومن أولي العزم من الرسل، فمن البدهي أن يكون هو الأعلم، ولكنَّ ربه عاتبه ودلَّه على عالم أقل شهرة منه ليأخذ العلم على يديه، وكان نوعًا من العلم لم يتعلمه موسى، فتكبد المشاق للحصول على هذا العلم، وقد وردت القصة في سورة الكهف[1]

قرآن للتلاوة فقط:

قديمًا كان الكفار يحرصون على عدم سماع القرآن، أو السماح بإسماعه للناس، وكانوا يحولون بين القرآن والناس بكل سبيل، وحكى القرآن سلوكهم فيقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤٨).

ولكن دهاقين العصر الحديث لم يحولوا بين الناس والقرآن، بل تفننوا في إسماعهم القرآن بكل الأصوات الحسنة، ولكن مجردًا بلا تفسير، أو تنزيل لآياته على الواقع المعاش.

فهذه الإذاعات لا علاقة لها بواقع الناس، فهي تلاوات متتابعة لسنا ندري هل هذه التلاوات لمجرد حصول الأجر، وإن كان ذلك على حساب واقعية الإسلام وشموله؟ أم ليكتفي الناس بقراءة القرآن كدليل على إسلامية الأشخاص أو البلد؟! وإن كان الأمر كذلك، فهل يُكتفى لنصرة الدين بالقراءة المجردة للقرآن؟ وهل هذا كل العمل؟

قال ابن الجوزي: «قال الحسن البصري: أنزل القرآن ليُعمَل به، فاتخذ الناس تلاوته عملًا، يعني: أنهم اقتصروا على التلاوة وتركوا العمل به»[١]

إن ابن رواحة صدع بها على مسامع المشركين في مكة وهو يقود بغلة رسول الله في عمرة القضاء؛ إذ أفهمهم أن اعتقاد قرآنية القرآن، وأنه من عند الله والسماح بتلاوته لا يكفي، بل لا بد من تطبيقه وتنزيله على الواقع وتحكيمه في حياة الناس، وهي الجولة التالية التي ينتظر المسلمون وقوعها مع الكافرين، وهي أن يحكم هذا القرآن في واقع الناس، وكان من إنشاده:

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله[٢]

وإذا أضافت هذه الإذاعات برامج أخرى بجانب التلاوات، فإنك تلاحظ

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) وصححه الألباني، ولفظه:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عن سَبِيلِهِ   الْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عن مَقِيلِهِ   وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عن خَلِيلِهِ

أن كثيرًا من البرامج الإذاعية في هذه المحطات والإذاعات الإسلامية تسوق الإسلام في صورة فقرات ميتة لا علاقة لها بصراع الحق والباطل، وذلك بتتويه الناس في عموميات عن طريق كلمات تخديرية، ثم تنحرف بهم عن المقصود، كما تصب الشحنة الروحية فيما يسمى بالابتهالات والأدعية والتواشيح.. !

ويبقى السؤال: هل هذا هو الإسلام الشامل الذي جاء به القرآن؟ فأين الحكم بما أنزل اللَّه؟، وأين باب الولاء والبراء؟، وفقه السنن في الأمم والأفراد وتقويم المسار البشري والدولي، ومناصحة الحكام، والعدالة في توزيع الثروات، وحرمة الإنسان المهضومة في السجون، وكذلك الانتصار لقضايا الجماهير، ودراسة عوامل الصعود والهبوط للأمم، وموقعنا على خريطة الصراع العالمي. إلخ، أين كل هذا؟ وما مساحته في خطاب هذه الإذاعات؟

إن هذه القضايا على بروزها وأهميتها ملفات قرآنية شائكة، لكنها مع إيقاف التفسير والتنفيذ.

إن الوضوء ذُكر في القرآن في آية واحدة من جملة ٦٢٣٦ آية، ومبحث الطهارة يشغل معظم البرامج، على حين أن قضايا بناء الأمم، ومحاربة الفساد، وما شابه، والتي استغرقت مساحات كبيرة من العرض القرآني، وهي جوانب أصابها الضمور المتعمد أو الإضمار، في الوقت الذي أصاب التضخم والورم الجوانب الأخرى!

كلكم يبكي فمن الذي سرق الكتاب؟

وعظ مالك بن دينار الناس يومًا، فاشتد بكاؤهم من تأثير الموعظة،

وكان معه كتاب، فوضعه جانبًا ريثما يجفِّف دموعه، ثم التفت باحثًا عن كتابه بعد الموعظة، فوجده قد سُرِق! فنظر إلى الحاضرين، علَّه يلمح بينهم وجهًا تلوح عليه آثار الجريمة، لكنه وجد الجميع متأثرين يبكون، فقال لهم: «كلكم يبكي، فمن سرق الكتاب»؟!

نعم كلهم يبكي فعلًا، فمن سرق الكتاب؟!

كل الناس يشكو، فمن المشكو منه إذن؟! وتكلم الحسَن يومًا حتى أبكَى مَن حولَه فقال: عَجيج كعجيج النساء ولا عزم، وخدعةٌ كخدعة إخوة يوسف جاءوا أباهم عِشاءً يبكون.

تسمع كلام بعضهم وإزباده وإرعاده ونهنهته وتباكيه، وترى سمته وهيئته، فتقول: هذا هو أصل الخير ومعدن الإصلاح، وتسمع لغيره فتقف على ما يشبه ذلك، المهم أنهم جميعًا أتقنوا فنون اجتذابك، ولو سألت نفسك سؤالًا بسيطًا بريئًا: لو كان مظهر هؤلاء كمخبرهم، فلماذا لم نر أثر هذا العلم في حياتهم؟ ولماذا لم تتغير بهم الأمة؟ إذ لو كانوا كما تخبرنا هيئاتهم ونبراتهم لما كان هذا حال الأمة وحالهم!

وما يقع فيه بعض الأفراد ينسحب على مؤسساتٍ أيضًا؛ فإن هيئات برمتها تستكبر أن يُنسب إليها تقصير أو نقيصة أو تفريط، وكأنَّ أفرادها معصومون ويحمِّلون الآخرين سبب البلايا، ويستثنون أنفسهم، كمن يقولون: القضاة شامخون، والإعلام محايد، والأزهر معصوم، وهكذا، والواقع يكَذِّب ذلك.

كذلك العلماء الذين يلقون باللائمة على غيرهم من الخلق، وينسبون الصواب المطلق لأنفسهم كأنهم معصومون أو كادوا!!

ولو كانت دعواهم صحيحة لما كان هذا حال الأمة وحالهم، ولنا أن نهتف مع من هتف: كلكم يبكي! فمن الذي سرق الكتاب؟!

لم يعد هناك أحد إلا ويشكو، فمن المشكو منه إذن؟! كلنا شاكٍ ومشكوٌ منه، فأين الخَلل إذن؟

خطابات الهروب والتمويه:

ومن السوء البالغ أن يقف العالم في المنطقة الرمادية، ويتكلم في عموميات، ويسوي في خطابه بين الضحية والجلاد، ويطالب الناس على العموم بالتقوى دون أن يوجِّه الكلام مباشرة لمن خربوا دينهم، فأكلوا الربا، ووقعوا في الزنا، وظلموا وطغوا، واستكبروا وعتوا عتوًّا كبيرًا!

هل يكفى أن نخطب في هؤلاء بخطاب التقوى المجرد، ثم لا نبين ما وقعوا فيه من انحرافات؟

لا أقول بتسمية المجرمين في الخطاب، لكن لا بد من ذكر أوصافهم وممارساتهم: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»[1]، فأين كذا وكذا في الخطاب المجرد المهلهل الزئبقي العام في كلام هؤلاء الشيوخ؟

هناك ظلم، وتنحية للشريعة، وموالاة لأعداء الأمة، وربًا ورشوة، وخمور وزنا، وزور وتزوير، وتطبيع مع الصهاينة. إلخ، ولكل هذه

(١) في الحديث «كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟ أخرجه أبو داود، (٢/ ٦٦٥) برقم: (٤٧٨٨)، قال الألباني: «صحيح»، السلسلة الصحيحة، (٥/ ٩٧) برقم: (٢٠٦٤).

الموبقات سَدَنة ومروِّجون وأسباب وروافد تغذّيها، فهل يكفي الخطاب المجرد عن التقوى دون توجيه القول البليغ في أنفس هؤلاء المنحرفين؟!

وبعضهم يلقي باللائمة -بكل صفاقة- على الشعب فقط دون الحاكم الظالم، كأن يتوجه باللائمة إلى الشعوب إذا حدث بلاء أو جفاف أو وباء قائلًا: هذا من ذنوبكم. وفي هذا بعض الحق، ولكن ينبغي عليه أن يتوجه بمثل هذا الخطاب لظَلَمة الحكام، وفَسَدة رجال الأعمال، وأصحاب المناصب السيادية والمنحرفين الذين ملأ فسادهم البر والبحر، أم أن التوبة كُتبت على الفقراء والبسطاء فقط، أما الأقوياء فلا يخطئون؟!

ذنوب الضعاف العاجزين كثيرة ... وما لقوي إذ تحاسبه ذنب

كأن ليس بين العالمين شرائع ... ولا خلفهم بعث ولا فوقهم رب[1]

العالم الموظف والعالم بالكفاءة:

قديمًا كان يترشح للمنصب الأكفاء، ثم يتولاه من بينهم الأكفأ، ولم يكن يُعطَى العالم إجازة التعليم والتحديث إلا إذا اجتاز اختبارات شاقّة يتفوق فيها على أقرانه، ومن بين النابهين يُرشح مَن يتولى منصب الفتيا أو القضاء أو الإمامة أو التحديث وخلافه.

وحينما تدخل الساسة في شأن الدعوة لم يكن تدخلهم محمودًا في غالب الأحيان؛ إذ استطاعوا أن يدجنوا فريقًا من العلماء ليتخذوهم غطاءً شرعيًا لتسويغ مظالمهم.

---

(١) البيتان للشاعر محمود غنيم، وهو شاعر مصري معاصر، من قصيدة له بعنوان صرخة في واد، انظر القصيدة على موقع الشاعر على الإنترنت، على الرابط التالي:
http://www.mahmoudghoneim.com/poetry/show-subject.php?id=141&title=%D5%D1%CE%C9%20%DD%ED%20%E6%C7%CF

ولم يكن يتأتى للحكام ذلك إلا بتجويع العلماء، وجعلهم في درجة الاحتياج الدائم إلى عطاياهم، فصادرت الدولة أوقافهم التي كان يتم الإنفاق عليهم منها، والتي كانت تجعلهم بمنأى عن تدخل الدولة في أرزاقهم، وبالتالي في فتاويهم، وبهذه المصادرة صاروا تحت رحمة السلطان، وصارت الوظائف الشرعية لمن يرضى عنه الحاكم الذي يملك العطاء والمنع.

وأصبح الحاكم يسند إليهم الوظائف، لا ليدلُّوه على الخير، بل ليسيروا في ركابه، ويبرّروا فساده، فكثر حَمَلة المباخر من هؤلاء العلماء، ونجح الحكام الظلمة في استدعائهم لإسكات الجماهير بالدين إذا لزم الأمر، أو على الأقل تبرير فسادهم، ثم يتم إزواؤهم عن المشهد، وإنزالهم في أقرب محطة بعد قيامهم بالدور المطلوب منهم.

أصبح عالم السلطة ظاهرة لا تخطئها العين في كل نظام فاسد ظالم مستبد، ولكونه بوقًا من أبواق الأنظمة الفاسدة، فقد أصبح جزءًا لا يتجزأ منها، له ما لها، وعليه ما عليها.

وكأنه صار أصلًا أصيلًا في بلادنا أن تُسنَد المناصب من قبل الظالمين لمجرد الولاء لا الكفاءة، وبات يُختار العلماء لقدرتهم على التلون والتبرير والدوران مع رغبة الحاكم لا الدوران مع الدليل!

وقد راعنا المشهد. فمثلًا حينما نتفرس وجوه علماء الأزهر المبرزين الذين يشغلون حيزًا في واجهة المناصب الأزهرية العليا -إلا من رحم ربي-، نجدهم معينين من قِبل الأنظمة التي أقرتهم على وظائفهم ما مالئوا الحاكم وناصروه.

نعم، نتفرس فيهم فلا نجد عمر مكرم أو الخراشي أو المراغي، أو العدوي أو محمد عبده، أو الغزالي أو كشك، أو محمد أبا زهرة، أو غيرهم من علماء الأزهر الذين تبنوا قضايا الجماهير المعذبة، ووقفوا للحكام المنحرفين بالمرصاد، وابتلينا بأناس يصعب عليك أن تفرِّق بين كلامهم وكلام مرتزقة الإعلام، وهم محظوظون بمناصب ما كانوا لينالوها إلا بسبب اتفاقهم مع الحاكم الفاسد في السياسة التي ينتهجها، فصارت الوظيفة الدينية مكافأة على الولاء للنظام وليست بالكفاءة.

أما إذا سألت عما حظي به هذا الصنف من العلماء من ألوان التمتع والنعيم الدنيوي في كنَف فسدة الحكام، فإن العين لا تخطئ الجواب أيضًا؛ حيث القصور والسيارات والعمارات مما هو فوق ما تسمح به مرتباتهم أو درجاتهم الوظيفية، بل يُعاملون أحيانًا معاملة الجنرالات!

وإن لم يكن هذا بيعًا للدين بالدنيا، ومتاجرة رخيصة به في سوق الأنظمة، فماذا يكون إذن؟!

إن العالم الموظَّف لا يمكنه أن يخرج عن سياسة الدولة التي تعطيه راتبه، والحكام في الأصل شريحة من الشرائح ينبغي أن ينالها النصيب الأوفى من نصائح العلماء المخلصين.

فيا ترى كم كان نصح هؤلاء الموظفين لأولياء نعمتهم من الحكام؟ وهل أقاموا حجة اللّه عليهم؟! لا شك أن الجواب مفجع.

وقد فطن علماؤنا الأكابر إلى هذا المنزلق الخطير، فكانوا يحرصون على الاستقلال بلقمة العيش عن هؤلاء، وكانوا يفرون من هذه المناصب ويجعلون لأنفسهم حرفة تدر عليهم دخلًا؛ لئلا يضطروا إلى أموال

الظلمة من الحكام أو فسَدة رجال الأعمال، فوجدنا من بينهم الجصاص والبزاز، والخواص والجصاص، والزيات، وغيرهم!

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول: «**إن في هذا لغنًى عن هؤلاء السلاطين**»، ولا يخفى عليك أنه قال هذا في حكام زمانه!!

وهذا أحد العلماء ينظر لماله الحلال، ويقول: «لولاك لتمندلوا بي»، أي: لولا تحقيق الكفاية باللّه ثم بك أيها المال، لاضطررت إلى العمل مع هؤلاء الظالمين، فاستخدموني لمسح قبائحهم وقاذوراتهم، ثم رموا بي كما يفعل صاحب المنديل بالمنديل الذي معه!

تأميم المؤسسات الشرعية:

وإذا كان هذا الأمر - أعني القيام بدور المحلل - حاصلًا من قِبل الأفراد من العلماء مع الحكام، فإن حصوله من الهيئات الدينية الرسمية أشنع وأفجر!

إن كثيرًا من مؤسسات الدعوة في العالم الإسلامي صارت أشبه بهيئة تطوعية خيرية لا علاقة لها بتصحيح مظالم الحكام، ولا تفتأ تغدر بالأمة في ما استأمنتها عليه من بيان الحق والانحياز له، كما صارت لا تفتي إلا إذا طُلب منها الفتوى مِن قِبل مَن يعطيها الغلة. وكاد دورها يقتصر على استطلاع الهلال لشهر رمضان وشوال وذي الحجة!

إن الشعوب لتتحرق شوقًا إلى فتواها حول الانقلابات العسكرية في البلاد الإسلامية، والإجهاز على إرادة الأمة.

وفتواها حول تعذيب وقتل المعارضين السياسيين.

وفتواها في عصمة الأجهزة الأمنية من المساءلة والملاحقة القضائية.

كذلك فتواها في مسألة سلب الحقوق والحريات. والعبث

بالمقدسات. وخذلان المسلمين المجاهدين. وموالاة الكافرين. والتفاوت بين الطبقات. وكيفية إدارة الثروات. ومحاربة حكم الشريعة في بلاد المسلمين. والاستهزاء بثوابت الدين ومحاربة الدعاة. وتزييف الوعي بالدين والتاريخ. إلخ.

ونسأل بعد ذلك حول كيفية تكوين هذه الهيئات العلمية الرسمية في بلاد الإسلام. هل كوِّنت بطريقة شرعية حيادية مرضي عنها؟ أم تم تكوينها وفرضها مِن قِبل جهات سيادية حاكمة، وكأنها فُرضت علينا بالوحي الإلهي؟!

ولماذا بات دور هيئات العلماء الإسلامية هو فقط توفير الغطاء الديني لجرائم الأنظمة الاستبدادية؟!

إنها الهيئات الشرعية التابعة للنظام التي تخرج على الناس بفتاوى تجرِّم سلوك المظلومين إذا ما أساءوا إلى الحاكمين، أو بعض رجال الدولة؛ وذلك لأن سوء الظن لا يجوز، والجهر بسوء القول حرام، والدفاع عن عرض (المسئولين) فريضة على العلماء ورجال الدين!!

فإذا ما نال أحدٌ من عِرض المسئولين المفسدين خرجوا على الناس بفتاوى الويل والثبور، وأن عِرض المسلم لا يُستباح، وطالبوا بإقامة حدِّ القذف المظلوم المفجوع الموجوع بمظالم من ظلموه!

وهذه الهيئات ورموزها - بشحمها ولحمها - صمتت صمت القبور عن جرائم الأنظمة من اعتقال، واغتصاب، وقتل المعارضين، وحصار المساجد وإغلاقها، وملاحقة الملتزمين، وتهجير المواطنين من ديارهم..

لم نسمع لهم صوتًا حين دخلت عصابات صهيون باحات المسجد الأقصى، وحاصرت أهل غزة.

لم نسمع لها حسًا حينما ذُبح المسلمون في مانيمار ووسط إفريقيا، وحينما حُرِّقت المصاحف وديس على الحجاب. إلخ.

وتزول كل هذه الإشكالات إذا علمت أن هذه الهيئات الدينية، ومن على رأسها موظفون في بلاطات الحاكمين المتورطين مع الأعداء في صفقات مشبوهة تلزمهم بالولاء والتبعية، وليسوا موظفين عند رب العالمين الذي انتدبهم لحمل أمانة هذا الدين، فلا لوم على الناس إذا غاضبوا شيوخهم؛ إذ كيف يثقون بمؤسسات دينية لا تأتمر إلا بأمر الحاكمين؟ وجعلتهم قضيتها الأولى يوالون عليها ويعادون؟

تصفية مؤسسة الأزهر:

لا يخفى الدور التاريخي للأزهر في مواجهة الغزاة والمحتلين، وما ثورة الأزهر على مدى ثلاث سنوات ضد نابليون وجيشه الفرنسي عنا ببعيد.

وفي سياق مرحلة محاصرة ما يتعلق بالتعليم الديني الأزهري نفسه فنستشهد بكلمة اللورد لويد أيضًا التي جاءت عن الأزهر في كتابه الذي ألفه عام ١٩٣٣م: (لو أمكن تطوير الأزهر لكانت هذه خطوة جليلة الخطر، ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه فحينئذ يصبح الأمل محصورًا في التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يُتاح له الانتشار والنجاح، وعند ذلك سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين: إما أن يتطور، وإما أن يموت ويختفي)[١]

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين (٢/ ٢٨٥، ٣٠٨ -٣٠٩)، نقلًا عن كتاب «القضية العربية في نظر الغرب» للجنرال كايير، ترجمة ميشال حجار، ونقلًا عن مجلة المقتطف عدد مايو ١٩٢٦م.

ثم تغيرت نظرة الحاكم إلى مؤسسة الأزهر ككيانٍ مستقلٍ فاعلٍ ومحركٍ وقائدٍ للحركة الوطنية يستطيع أن يخلع الحاكم في أحيانٍ كثيرة ويقود التغيير؛ لما له من تأثير ديني بحق على جموع الشعب، استمد هذا الرصيد من نزاهة الأزهر العلمية الشرعية، وانحيازه انحيازًا حقيقيًا للأمانة المنوط به حملها، وليس لفئة أو جماعةٍ أو نظام حكم بعينه، ذلك أن مصر الدولة كانت تستمد قوتها الرئيسة من قوة واستقلالية الأزهر كقوة ناعمة فاعلة في محيطها الإقليمي والعالمي أيضًا.

بلغ ذروة التحول السلبي والتراجع المزري لدور الأزهر كمؤسسة جامعة بعد حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، ومحاصرة دوره بحيث يضمن ضباط يوليو ولاءه لمقتضيات المرحلة أو علي الأقل تحييد دوره.

كما بدا ذلك واضحًا وجليًا في قانون تنظيم الأزهر عام ١٩٦١م؛ حيث أصبح تابعًا ماليًا وإداريًا بل وسياسيًا للدولة، وفقد على أثرها أهم مصدر قوته وتأثيره، فتحول شيخ الأزهر إلى مجرد موظف كبير بدرجة رئيس وزراء يتم تعيينه من قِبل رئيس الجمهورية، يتقاضى راتبه حسبما تقرره له السلطة، وبذلك يتم تقليم أظافر الأزهر وتسييسه، حتى قال الحاكم وقتها: «من أراد فتوى من الأزهر فليأخذ (إوزة) معه، وليحصل عليها من الشيوخ»!!

ولم يكن تدخل سلطة يوليو عائقًا أمام استقلال بعض علماء الأزهر العمالقة أصحاب الرأي الحر أمثال العلّامة الشيخ محمد الخضر حسين أحد أبرز علماء عصره استقلاليةً ونزاهةً وعلمًا، ليتبين الفارق الشاسع بين علماء عاشوا سلاطين بعلمهم المنزَّه عن الهوى، وعلماء ارتموا في

حضن السلطة تحت دعاوى ومبررات واهية وحقائق ملتوية لضمان الكرسي أو لفسادٍ في العقل والدين معًا!

فلنشاهد المقارنة المذهلة والمقاربة ذات الدلالة التي لا تخطئها العين إزاء موقف الشيخ الخضر حسين هذا -التونسي الأصل- عندما وُلِّيَ مشيخة الأزهر بعد أقل من شهرين من حركة ٢٣ يوليو في ١٦ سبتمبر ١٩٥٢م بناءً على طلب ضباط يوليو؛ حيث توجه ثلاثة من الضباط إلى منزله طالبين منه قبول المنصب، فنهض بالأمانة ما وسعته الطاقة رغم قِصَر مدتها، وعندما أحسَّ بضغوطٍ تحول بينه وبين القيام بمهام الأمانة الموكَلة إليه، صمَّم على الاستقالة في ٧ يناير ١٩٥٤م.

احتدم الصراع بين جمال عبدالناصر ومعسكره من صغار الضباط المنتفعين من الحكم الجديد من جهة وبين الرئيس اللواء محمد نجيب وجماعة الإخوان المسلمين من جهةٍ أخرى، فطلب منه عساكر يوليو فتوى بأن هؤلاء (أي: الإخوان) كفار أو خوارج أو بغاة، فقال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: « **معاذ الله أن أختم حياتي بهذه الفتوى، وأضع دماءهم في رقبتي. معاذ الله أن أقول عن الدعاة بغاة. لقد عشت خادمًا لديني لا مستخدمًا له. .** ».

ثم قال قولته الشهيرة: «ويكفي العبدَ كِسرةُ خبزٍ وشربة ماءٍ، وما أكثر الفضاء في ملكوت الله، وإني أشهد الله أن الإخوان دعوة ربانية عرفتهم ميادين البذل والعطاء والجهاد والتضحية، لم يخونوا ولم يغدروا بما عرفت عنهم، وها أنا ذا أعلن استقالتي من كل منصبٍ يحول بيني وبين إرضاء ربي. .»

وختم استقالته المدوية قائلًا: «إن الأزهر أمانةً في عنقي أسلمها - حين أسلمها - موفورةً كاملة، بل وإذا لم يتأتّ أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي، فلا أقل من أن لا يحصل على نقص»(١)

انكسر بعد ذلك الأزهر وعلماؤه -إلا القليل النادر- أمام بطش الحكام، وصارت مناهجه ميتة لا تخدم الواقع ولا قضايا الأمة، وتم تقليص المقررات الشرعية، وأطالت مناهجه في تدريس أمور لا طائل من ورائها، أو تجاوزها الزمن، فتراه يقرر على الطلاب مطولات في أبواب الرقّ -الذي لم يعد موجودًا- على حين لا يقرر سطرًا واحدًا عن حقوق الشعب على حاكمه، أو كيفية اختيار الحاكم في الإسلام!

تغيرت مواقف الأزهر بالعكس حتى صارت قيادات الأزهر تقف دومًا في صفّ الحكام الظالمين ضد الشعب؛ إذ لما خرج الشعب في ٢٥ يناير ٢٠١١م، خرج شيخ الأزهر يحذر من الفتنة، والخروج على الحاكم، وأفتى المفتي بسقوط صلاة الجمعة حتى لا يشارك المصلون في المظاهرات!

ونفس المؤسسات خرجت لتحرِّض الناس على الخروج لتكون طرفًا في ٣٠ يونيو ٢٠١٣م، وصار الخروج -ولو بالسلاح - حلالًا بعدما كان حرامًا!!

ونفس المؤسسات عادت لتحرِّم الخروج في المظاهرات بعد ذلك، وتُفتي بل وتحرِّض الحاكمين على قتل المخالفين!!

---

(١) انظر: ترجمة الشيخ محمد الخضر حسين، في كتاب (النهضة الإسلامية في سير أعلام المعاصرين)، للدكتور محمد رجب البيومي (١/ ٥١).

والعجيب أن فتاوى هؤلاء في مساندة النظام الفاسد، تنال اهتمامًا إعلاميًا منقطع النظير، حتى قال أحد الشعراء في أحد رءوس هذه الهيئات وأكبرها ساخرًا:

الدين في يديه كالعجينة ليس كالأولى عقولهم سجينة
وكلما رد عليه العلما زادوه شهرة كنجم السينما[(١)]

مناظرة مع دكتور أزهري:

ناظرتُ يومًا أحد علماء السلطة الذين يحكمون على الدعاة بالجملة، ويرمونهم بالتشدد والتخلف والرجعية والأصولية تلبيةً لرغائب السلطان قبل أن يرغب، وتحقيقًا لحلمه قبل أن يحلم!

وكان في كلامه تعصُّب ظاهر ومتاجرة مكشوفة بورقة الأزهر قائلًا: «نحن علماء الأزهر، ومنا تصدر الفتاوى، ولا يمكن لأحد أن يفتات على سلطة الأزهر».

فقلت: إن الأزهر بمواقف علمائه وليس بعمائمه ومآذنه، فنحن نعرف الأزهر بالشرقاوي، وعمر مكرم، والخراشي، ومحمد عبده، والمراغي، والعدوي والغزالي. وغيرهم ممن تبنوا قضايا الجماهير، وساعدوهم على انتزاع حقوقهم من بين أنياب ظلمة الحكام، وفجرة الوزراء، ومردة التجار؛ لأنهم كانوا يمثلون العلماء والأزهر بجدارة، وكان من صلاحياتهم أن يختاروا الحكام ويعزلونهم، كما عزلوا خورشيد من قبل، وولوا مكانه محمد علي.

---

(١) أرجوزة للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي بعنوان الأصوليون والوصوليون، يسخر فيها من علماء الفتنة. على الرابط التالي:

http//:forum.islamstory.com/40503-post1.html

أما من يدجنهم الحكام، ويستخدمونهم لتخدير الجماهير، وصرفهم عن حقوقهم، فهؤلاء تابعون لمن ولّاهم، وهم سفراء الحاكم في المؤسسة الأزهرية، وغيرها من المؤسسات الدعوية التي يسيطر عليها الحكام هنا وهناك.

كيف لا وقد قال شيخ سابق من شيوخ الأزهر: «أنا موظف في الدولة، أعمل لحساب الدولة التي أتقاضى منها راتبي»!

وإذا كان الولاء لمن أعتق كما هو معلوم في الفقه، فإن ولاء هؤلاء لمن موَّل ووظَّف وعيَّن وأسند المناصب!

إن كثيرًا من رموز الأزهر من الدكاترة والأساتذة، تم تعيينهم في الأزهر بالولاء وليس بالكفاءة؛ فقد حصلوا على الكراسي التي يشغلونها، بينما حرم منها الأكفأ والأجدر؛ لأن التقارير الأمنية حسمت الموقف لصالحهم.

ثم قلت له: إن الأولى لمثلك أن يقول: أنا ممثل النظام الحاكم داخل كيان الأزهر!

واستطردت سائلًا: أين كان هؤلاء الدكاترة والأساتذة، وأعضاء اللجان ورؤساء الأقسام حينما كانت حقوق الأمة مغتصَبة، وبلاد المسلمين مستباحة، والتطبيع مع الصهاينة قائمًا على قدم وساق، والشريعة تحارب في بلاد المسلمين؟!

كما أن الأزهر ليس هو المتحدث الحصري باسم الإسلام، وإني -وإن كنت أزهريًا- ليس لي أن أجحد دور المودودي والكاندهلوي، وعمر المختار وابن باديس، والبشير الإبراهيمي، وحسن البنا والندوي وسيد قطب. وغيرهم كثير ممن نصروا قضية الإسلام يوم تقاعس عنها

الأزهر، وهؤلاء لم يكونوا أزهريين يومًا!!

وأكملت: ثم لماذا لم نعد نسمع للأزهر صوتًا إلا إذا كانت القضية هي الدفاع عن الحكام، أو بعض أركان النظام وأهل المال والفن. إلخ. وأنت أيها الشيخ - المناظِر- وأمثالك تهتاجون للتعريض بسلوك ممثلة تؤدي أدوار الإغراء، فقاطعني قائلًا: هو دفاع عن أعراض المسلمات.

فقلت: جهد مشكور، لكن: لماذا لا تهتاجون للاعتداء على الدماء التي تُسفَك في الميادين والطرقات والمساجد!! وحرمتها أولى من حرمة الأعراض يا أساتذة الفقه؟! فلم يجبني وطلب الانسحاب!!

* * * * *

الفصل الثالث
العلماء المتساقطون

الفصل الثالث
العلماء المتساقطون

نحاول في هذا الفصل تسليط الضوء على بعض الأصناف التي حُرِمت شرف الالتحاق بزمرة العلماء الصادقين، وإن كانوا من أوعية الحفظ، وأئمة الخطابة والبيان؛ لأنهم قوم حفظوا الدليل وتناسوه أو أخلوا بمقصوده.

ولا يبلغن المدى بالبعض أن يترك العلم جملةً لأجل خوف الوقوع في هذه البليات أو غيرها، وكاتب هذه السطور ليس مبرأً من العيوب، لكن كلنا ذو خطأ، ومن سار على درب الإصلاح وصل، وندم آدم تسبب في العفو عنه، واستكبار إبليس أدى إلى لعنه وطرده، فهي ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

قال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه «أريد أن أتعلم العلم، وأخاف أن أضيعه، فقال: كفى بترك العلم إضاعة له»[1]

حساسية موقف العلماء وخطورته:

وبرغم ما يذكر من فضل العلم والعلماء، فإن العلماء لم ينالوا هذا الفضل بالمجان، أو لأجل حفظهم بعض النصوص وترديدها، فإن العلم سلاح ذو حدين، ولا يعرف الموقف الوسط، فإما أن يكون طريق صاحبه إلى الجنة، أو أقصر الطرق إلى النار؛ وذلك لأن للعالم أجر مَن

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥٩).

يتبعونه، أو عليه وزر من يضلهم من خلق اللَّه إلى يوم الدين؛ ولذلك قالوا: «إذا زل العالِم ضل بزلته عالَم».

فإن استقام العالم فله أجر من انتفع بعلمه إلى يوم الدين، وذلك ذخر له في صحيفته، في حياته وبعد موته، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ??].

وإن ضل العالم، فعليه وزر نفسه ووزر من يَضلِون بضلاله إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ??].

وللَّه در من قال:

أيها العالم إياك الزلل واحذر الهفوة؛ فالخطب جلل

هفوة العالم مستعظَمه إن هفا أصبح في الخلق مثل

أنت ملح الأرض من يصلحه إن بدا فيه فساد أو خلل

وقال آخر:

بالملح يُحفظ ما يُخشى تغيره فكيف بالملح إن حلت به الغِيَر؟![(١)]

وعن معاذ قال: «سلوا عن الخير، ولا تسألوا عن الشر، شرار الناس شرار العلماء في الناس»[(٢)]

---

(١) انظر هذه الأبيات في: المدخل، لابن الحاج، (١/ ١٠٧، ١٠٨)، وانظر: المصفى من صفات الدعاة لعبد الحميد البلالي، (١/ ٢١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٤٢). والبزار (٧/ ٩٣، رقم ٢٦٤٩)، والطبراني في الشاميين (١/ ٢٥٨، رقم ٤٤٧).

وإليك بعض الأصناف المذمومة من العلماء:

جَهلة العلماء!

الناس من حيث العلم والجهل أصناف تحدث عنها الخليل بن أحمد فقال: «الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه. ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه. ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه. ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه»(١)

والواجب أن يحرص الإنسان على تحقيق العلم المطلوب، وبالأخص العلماء الذين قال الرسول في شأنهم: «منهومان لا يشبعان: منهوم في علم لا يشبع، ومنهوم في دنيا لا يشبع»(٢)

والاستزادة من العلم مطلوبة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولا نهاية لهذا الطريق ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقال ابن المبارك: «لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل»(٣)

وهذا النوع من الجهل جهل معرفة، وعلاجه بمداومة الدراسة والتحصيل.

وهناك نوع أخطر من الجهل بالاجتراء على الحرمات! والذي يعنينا في

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ١٨٧).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولم أجد له علة.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ١٨٣).

هذا المقام الجهل الذي هو من نوع الاجتراء على المحظور، وليس الذي هو من نوع نسيان أو عدم استظهار الدليل، وإن كان كلاهما جهلًا، إلا أن جهالة الاستظهار أخفّ بكثير من جهالة الذنوب والمعاصي، وهذا ما يحتاج إلى بيان.

إن شأن مَن علم العلم وترك العمل به شأن المستكثر من حُجج اللَّه عليه، فما الظن بمن علم العلم، ثم سار عكس ما يدله عليه العلم - وهو يعلم-؟!

قال ابن تيمية: «من عمل بخلاف الحق فهو جاهل، وإن علم أنه مخالف للحق كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عمل سوءًا فهو جاهل»[1]

وقال أيضًا: «لفظ الجهل يُعبَّر به عن عدم العلم، ويعبر به عن عدم العمل بموجَب العلم»[2]

وقال ابن دقيق العيد: «ولست أعني بالجهل هاهنا عدمَ العلم بالحُكم، بل إما هذا، وإما أن يكون عبارةً عن فعل ما لا يسوغ، وإن كان العلم بالحكم موجودًا؛ لأنه قد يقال في هذا: «إنه جهل، ويقال لفاعله: جاهل، والسبب فيه أن الشيء يُنفَى لانتفاء ثمرته والمقصود منه، فيقال: فلان ليس بإنسان، إذا لم يفعل الأفعال المناسبة للإنسانية، ولما كان المقصود من العلم العملَ به جاز أن يُقال لمن لا يعمل بعلمه: إنه جاهل غير عالم»[3]

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٣٩).
(٣) إحكام الأحكام، (ص ١٢٢).

وفي هذا يقول ابن خلدون: «إذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته، وصار مسخًا على الحقيقة»[١]

وقال ابن القيم: «الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجَبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغةً وعرفًا وشرعًا وحقيقة، قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لما قال له قومه: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧] أي من المستهزئين. وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، أي: من مرتكبي ما حرمتَ عليهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال قتادة: «أجمع أصحاب رسول اللَّه أن كل ما عصي اللَّه به فهو جهالة»، وقال غيره: «أجمع الصحابة ﷺ أن كل من عصى اللَّه فهو جاهل». وقال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وسمي عدم مراعاة العلم جهلًا، إما لأنه لم ينتفع به فنُزِّل منزلة الجاهل، وإما لجهله بسوء ما تجني عواقبُ فعله[٢]

وقال السخاوي: «على أنه يقال: ما يعرفه الفُساق من العلم ليس بعلم حقيقة؛ لعدم عملهم به، كما أشار إليه التفتازاني في تقرير قول التلخيص: وقد يُنزَّل العالم منزلة الجاهل، وصرَّح به الشافعي في قوله:

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٦٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٦٩ - ٤٧٠).

ولا العلمُ إلا مع التُّقَى ... ولا العقل إلا مع الأدب[١]

قلت: وقد كان إبليس من أعلم خلق اللَّه تعالى، لكن ما قيمة علم في جوف قلب فاسق مفتون؟!

علماء ملعونون. كاتمون للحق:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠]، استحق هؤلاء العلماء هذا الجزاء الشنيع من لعنة اللَّه والملائكة ولعنة اللاعنين على هذا الذنب العظيم، وهو كتمان ما أنزل اللَّه -تعالى- الذي بينه وأوضحه للناس، فعمدوا إلى هٰذا الواضح البيِّن فكتموه وشوَّهوا معالمه.

وجاء بـ(أولئك)، وهو اسم إشارة للبعيد، تنبيهًا على ذلك الوصف القبيح، وأبرز الخبر في صورة جملتين توكيدًا وتعظيمًا، وأتى بالفعل المضارع المقتضي التجدد لتجدد مقتضيه، وهو قوله تعالى: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وأتى صلة الذين فعلًا مضارعًا ليدل أيضًا على التجدد؛ **لأن بقاءهم على الكتمان هو تجدد كتمان.**

وجاء بالجملة المسند فيها الفعل إلى اللَّه؛ لأنه هو المجازي على ما اجترحوه من الذنب.

وجاءت الجملة الثانية؛ لأن لعنة اللاعنين مترتبةٌ على لعنة اللَّه للكاتمين.

وأبرز اسم الجلالة بلفظ اللَّه على سبيل الالتفات؛ إذ لو جرى على نسق

---

(١) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي (٢/١٨).

الكلام السابق، لكان أولئك يلعنهم، لكن في إظهار هذا الاسم من الفخامة ما لا يكون في الضمير.

واللاعنون: كل من يتأتى منهم اللعن، وهم الملائكة ومؤمنو الثقلين، وسائر المخلوقات، قاله الربيع بن أنس؛ أو كل شيء من حيوان وجماد غير الثقلين، قاله ابن عباس والبرّاء بن عازب، إذا وُضع في قبره وعُذِّب فصاح، إذ يسمعه كل شيء إلا الثقلين؛ أو البهائم والحشرات، قاله مجاهد وعكرمة، وذلك لما يصيبهم من الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين.

وربما يكون اللاعنون هم الطاردون لهم إلى النار حين يسوقونهم إليها؛ لأن اللعن هو الطرد؛ أو الملائكة؛ قاله قتادة؛ والأظهر القول الأول.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾: عن الكتمان إلى الإظهار. ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: أصلحوا قومهم بالإرشاد إلى الإسلام بعد الإضلال. ﴿وَبَيَّنُواْ﴾: أي الحق الذي كتموه، أو اعترفوا بتلبيسهم وزورهم، أو ما أحدثوا من توبتهم، ليمحوا سيئة الكفر والفساد عنهم ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به، ويقتدي بهم غيرهم من المفسدين.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى من جمع هذه الأوصاف من التوبة والإصلاح والتبيين.

﴿أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي أعطف عليهم، ومن تاب اللَّه عليه لا تلحقه لعنة.

وفي الحديث: «ما من رجل يحفظ علمًا فكتمه إلا أتى يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار»[١][٢]

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٦١) وحسنه الألباني.

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط عند تفسيره للآيتين من سورة البقرة (١/ ٦٣٤).

وخلاصة ما يُستفاد من الآية: أن كتمان العلم من أعظم الجرائم في حق الشريعة، ولا تقبل التوبة من هذه الجريمة الشنيعة إلا بإزالة آثارها، ويكون ذلك بضدها من إصلاح ما أفسده العالِم بسكوته، وذلك بالبيان المبين الواضح في المسألة التي أريد لها أن يكون العلم بها محجوبًا عن الناس، أو في طي الكتمان.

ويذكر أنه لما جاء الخديوي إسماعيل بالقانون الوضعي من فرنسا عرضه على بعض علماء السوء، فَقَالُوا: كل ما في هذا القانون من مواد لا تخرج عن المذاهب الأربعة، ولا بد أن توافق أحد المذاهب الأربعة، ولو بوجهٍ من الوجوه أو برأي أو قول ضعيف في مذهب أَحْمَد أو الشَّافِعِيّ أو مالك أو أبي حنيفة، فلا مانع مِن أن يُقرَّ في بلاد الْمُسْلِمِينَ، فأُقِرَّ هذا القانون بناءً عَلَى ذلك، فاتفق أصحاب السياسة، وعلماء السوء عَلَى إقرار هذه القوانين الوضعية وإدخالها إِلَى بلاد الْمُسْلِمِينَ، وكتموا التناقضات الصريحة التي خالفت فيها هذه القوانين شريعة الإسلام الربانية.

وعلى نفس الدرب أسندت حكومات العالم الإسلامي أمر التقنين والتشريع إلى علماء السوء الكاتمين للحق من المنافقين الذين يسبِّحون بحمد كل حاكم، فإذا ما تعارض القانون الوضعي مع الشرع كتموا هذا التعارض، كما كتَم أحبار اليهود آيات الرجم وحذَفوها من التوراة، واستنكر القرآن عليهم هذا السلوك المنحرف في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

وإذا تم كشف أمر علماء السوء في الكتمان، ووقف الناس على النصوص المخفية احتال هؤلاء الكاتمون على النص فحرَّفوا دلالته، كما كان علماء السوء في بني إسرائيل يبدِّلون ويحتالون عَلَى دين اللَّه، وقد

ذلك ظهر جليًا في قصة القرية التي كانت حاضرة البحر، قال اللَّه تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فماذا فعلوا؟ وكيف كان المخرج؟ جَاءَ علماء السوء المفتون، وَقَالُوا: الأمر بسيط! ألقوا الشِبَاك يوم الجمعة ولا تصطادوا يوم السبت، ثُمَّ خذوها يوم الأحد!! وكان من أمرهم ما كان؛ إذ مسخوا قردةً خاسئين.

حمير العلماء. علموا وتركوا:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

لعله ساءك التشبيه. لكنه تشبيه القرآن الكريم لنفرٍ من الناس حُمِّلوا أمانة العلم ولم يقوموا بحقها، وإن تكلم أحدُهم بالعلم الذي حفِظه، فإن ذلك لمجرد الكلام وليس عن قناعةٍ، وبالتالي لم يقم بحق هذا العلم الذي حصَّله، بدليل قوله تعالوا ﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ فكأنه تحمَّل أمر العلم كرهًا، ولو كان برغبته ما حمل شيئًا.

وهو مَثَل ضُرب للعالم الذي لا يدري قدر العلم الذي معه، فلم يقم بنشره والدعوة إليه، فهو كالحمار الذي يحمل كتبًا لا يدري ما قيمتها. وهل تُقدِّر الحمير قيمة ما سُطِّر في الكتب من علوم ومعارف؟!

والحمار يحمل ما يحمل، ولا يختلف الأمر عنده إذا كان يحمل كتبًا أم خشبًا أم حتى أحجارًا!

وقبيح أن يكون حمَلة علم العليم الخبير، يتعاطونه بعقلية البغال والحمير!

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد قال رسول اللّه ﷺ: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار فتندلق أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان! ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1]

فما قيمة العلم بغير عمل؟!

قال عيسى ابن مريم -عليه السلام- وهو يشبِّه علماء السوء بتشبيه لطيف: (الدنيا داء الدين، والعالم طبيب الدين، فإذا رأيتم الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه فاتهموه، واعلموا أنه غير ناصح لغيره).

وصدق واللّه؛ لأن الطبيب الذي يجر الداء إلى بدنه، كأنه ما علم شيئًا عن ضرر هذا الداء، وهو والجاهل سواء، إلا أن الملامة عليه أشد.

وفي مثل هؤلاء قال القائل:

كحامل لثياب الناس يغسلها ... وثوبه غارق في الوحل والنجس![2]

وقال الماوردي: «وليكن من شيمته- أي: العالم- العملُ بعلمه، وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به، ولا يكن ممن قال اللّه -تعالى- فيهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٤) ومسلم (٢٩٨٩).
(٢) البيت للإمام الشافعي، انظر مواعظ الشافعي، (ص٢٧).

[الجمعة: ٥]، فقد قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨]: يعني أنه عامل بما علم.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ويل لأقماع القول[١] ويل للمصرين»[٢]، يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به.

وروى عبد اللّه بن وهب عن سفيان أن الخَضِر - على نبينا وعليه السلام - قال لموسى عليه السلام: «يا ابنَ عمران! تَعَلَّم العلم لتعمل به، ولا تتعلمْه لتحدث به، فيكون عليك **بَوْره ولغيرك نوره**»[٣]

وقال أبو الدرداء: «أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي اللّه أن يقول: قد عَلِمْتَ، فماذا عَمِلت إذ عَلِمت»؟[٤]

وقال ابن حجر الهيتمي: «رسوم العلوم الخالية عن الأعمال الصالحة في الحقيقة - يقصد العلم النظري الذي لا يؤيده عمل- مقتٌ أيّ مقت، وغضب أي غضب، ومن ثَم جاء في الأخبار الصحيحة من عقاب

---

(١) قال الأزهري في تهذيب اللغة (١/ ١٩٢): (قمع): قوله: ويل لأقماع القول، عُني به الذين يسمعون القول ولا يعونه، ولا يعملون به، كما أن الأقماع لا تمسك شيئًا مما يُصبُّ فيها، شبَّه آذانهم بها في كثرة ما يدخلها من المواعظ وهم مصرون على ترك العمل بها. وواحد الأقماع قمع، وهو الأداة التي يُصَبُّ فيها ما يُحقَن في السقاء وغيره من الأوعية اهـ. قال زهران: وقد وقع في طبعة أدب الدنيا والدين [ويل لجماع] وهو خطأ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦٥٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٠) وصححه الألباني.

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي، (ص٨١).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٧٣٠) (ص١٩٩)، وابن المبارك في الزهد (٣٩).

العلماء الذين لم يعملوا بعلمهم ما يُدهش اللبَّ ويحيِّر الفكر»[١]

وقال الشاطبي: «العلم المعتَبر شرعًا -أعني الذي مدَح اللَّه ورسولُه أهلَه على الإطلاق- هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيَّد لصاحبه بمقتضاه، الحاملُ له على قوانينه طوعًا أو كرهًا»[٢].

«. فمن ثَم قيل: عملٌ بلا علم جناية، وعلمٌ بلا عمل وسيلة بلا غاية، فمن لم يظهر له نتيجة علمه في عمله، فعلمه عليه لا له، وربما شُهِد بخروجه منه إن كان علمه مشروطًا بعمله، ولو في باب كماله، فافهم وتأمل ذلك»[٣]

وقيل في منثور الحِكَم: «لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به».

وقال القرافي: «القاعدة: أن الوسيلة إذا لم يحصل مقصدها سقط اعتبارها»[٤]

وقال شيخه العز ابن عبد السلام:

قاعدة: «كل تصرف تقاعد -أي: قصر- عن تحصيل مقصوده فهو باطل»[٥]

---

(١) الفتاوى الحديثية (ص ٢٢٠).
(٢) الموافقات (١/ ٨٩).
(٣) قواعد التصوف (ص ٢٥).
(٤) الفروق (٢/ ٥٩٨)، وفي بلغة السالك للصاوي (٢/ ٥٥١ - ٥٥٢): الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها لم تُشرع.
(٥) قواعد الأحكام (٢/ ١٤٣).

وقال ابن الجوزي: «إنما فَضُل العلماء بالعمل، ولولا العمل به ما كان له معنى، وإذا لم أعمل به كنتُ كمن لم يفهم المقصودَ به، ويصير مَثَلي كمثل رجل جمع الطعام وأطعم الجياع ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه»[١]

وقال: «وفي الناس من حصل له العلم، وغفل عن العمل بمقتضاه، وكأنه ما حصَّل شيئًا، نعوذ باللَّه من الخِذلان»[٢]

وقال أيضًا: «إذا رأى العلماء أنَّ لهم بالعلم فضلًا صاح لسان الحال بالعلماء: وهل المراد من العلم إلا العمل؟

وعن حذيفة قال: «ويل لمن لا يعلم، وويل لمن علم ثم لا يعمل».

وقالوا: «ويل لمن لا يعلم، ولو شاء اللَّه لعلمه واحد من الويل، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع من الويل».

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»[٣]

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «يأتي على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن فيجمعون حروفه ويضيعون حدوده، ويل لهم مما جمعوا، وويل لهم مما ضيعوا، إن أوْلى الناس بهذا القرآن مَن جمعه ولم ير عليه أثره»[٤]

---

(١) تلبيس إبليس (ص ١١٦)

(٢) صيد الخاطر (ص ٣٨٥)

(٣) انظر هذه الآثار في: اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص٤٦ - ٦٣)، فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي، مطبعة الحلبي.

(٤) أخرجه الديلمي (٥/ ٤٤٣، رقم ٨٦٨٦).

وقال ابن الجوزي: «إنما فَضُل العلماء بالعمل، ولولا العمل به ما كان له معنى، وإذا لم أعمل به كنتُ كمن لم يفهم المقصودَ به، ويصير مَثَلي كمثل رجل جمع الطعام وأطعم الجياع ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه»(١)

وقال: «وفي الناس من حصل له العلم، وغفل عن العمل بمقتضاه، وكأنه ما حصَّل شيئًا، نعوذ باللَّه من الخِذلان»(٢)

وقال أيضًا: «إذا رأى العلماء أنَّ لهم بالعلم فضلًا صاح لسان الحال بالعلماء: وهل المراد من العلم إلا العمل؟

وعن حذيفة قال: «ويل لمن لا يعلم، وويل لمن علم ثم لا يعمل».

وقالوا: «ويل لمن لا يعلم، ولو شاء اللَّه لعلمه واحد من الويل، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع من الويل».

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»(٣)

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «يأتي على الناس زِمان يتعلمون فيه القرآن فيجمعون حروفه ويضيعون حدوده، ويل لهم مما جمعوا، وويل لهم مما ضيعوا، إن أوْلى الناس بهذا القرآن مَن جمعه ولم ير عليه أثره»(٤)

---

(١) تلبيس إبليس (ص ١١٦)

(٢) صيد الخاطر (ص ٣٨٥)

(٣) انظر هذه الآثار في: اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص٤٦ - ٦٣)، فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي، مطبعة الحلبي.

(٤) أخرجه الديلمي (٥/ ٤٤٣، رقم ٨٦٨٦).

يأخذون أنفسهم بالرُّخَص ويأخذون الناس بالعزائم!

وبعض هؤلاء لا يتركون العمل بالكلية، ويريدون أن يرفعوا عن أنفسهم الحرج في ترك العمل، فتراهم يبحثون لأنفسهم عن المخارج الشرعية -وهم بارعون فيها-، وهم في الوقت نفسه، إذا جاءهم طالب فتيا، يشدِّدون عليه ويُلزمونه بالعزائم التي حللوا أنفسهم من الأخذ بها، وهذا عكس ما كان عليه علماء السلف الذين كانوا يأخذون أنفسهم بالعزائم، ويُفتون الناس بالرُّخَص.

فعن أبي العالية قال: «سيأتي على الناس زمانٌ تخرب صدورهم من القرآن، وتبلى كما تبلى ثيابهم، ولا يجدون له حلاوة ولا لذاذة!

إن قصروا عما أمروا به قالوا: إن اللَّه غفور رحيم!

وإن عملوا ما نُهوا عنه قالوا: إن اللَّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء!

أمرهم كله طمعٌ ليس معه خوف!

لبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب، أفضلهم في أنفسهم المداهن!»[(١)]

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس: «ومن ذلك أن أقوامًا من القُرَّاء يتسامحون بشيء من الخطايا كالغيبة للنظراء، وربما أتوا أكبر من ذلك الذنب، واعتقدوا أن حفظ القرآن يرفع عنهم العذاب، واحتجوا بقوله: «لو جُعل القرآن في إهاب ما احترق»[(٢)]، وذلك من تلبيس إبليس

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد، أخبار أبي العالية، حديث (١٧٦٠).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٣١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٦٢).

عليهم؛ لأن عذاب مَن يعلم أكثر من عذاب مَن لم يعلم؛ إذ زيادة العلم تقوِّي الحجة، وكون القارئ لم يحترم ما يحفظ ذنبًا آخر، قال اللَّه تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال في أزواج رسول اللَّه: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠][١]

قال ابن الجوزي: «ومن تلبيسه عليهم أن يعتمد أحدهم على خَلة خير ولا يبالي بما فعل بعدها، فمنهم من يقول: أنا من أهل السنة، وأهل السنة على خير! ثم لا يتحاشى عن المعاصي. وكَشْفُ هذا التلبيس أن يقال له: إن الاعتقاد فرض، والكفُّ عن المعاصي فرض آخر، فلا يكفي أحدهما عن صاحبه»[٢]

يا معشر القراء يا ملح البلد ... من يصلح الملح إذا الملح فسد؟![٣]

علماء ولكن. كلاب لاهثة:

سبحان اللَّه. شبَّه اللَّه علماء السوء بأشنع تشبيهين منفِّرين في القرآن الكريم، وذلك لسوء صنيعهم، فشبَّه الساكت منهم بالحمار -كما تقدم- وشبَّه الذي ينحاز بعلمه إلى جبهة الباطل رجاء متاع الدنيا الزائل بالكلب والعياذ باللَّه - تعالى-!!

قال -تعالى- في قصة بلعام بن باعوراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ

(١) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي، الباب السادس: فِي ذكر تلبيس إبليس عَلَى العلماء فِي ذكر تلبيسه عَلَى القراء.
(٢) تلبيس إبليس (ص٣٤٧).
(٣) البيت ينسب إلى سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، انظر إحياء علوم الدين (١/ ٦١).

ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

كذلك مثل العالم الفاجر، فإن بلعام أوتي كتاب اللَّه -تعالى- فأخلد إلى الشهوات فشُبِّه بالكلب، أي: سواء أوتي الحكمة أو لم يؤتَ فهو يلهث إلى الشهوات؛ لأن الحكمة التي تعلمها تبخرت أمام سلطان هواه عليه.

والنصوص في ذلك كثيرة، وتنطبق على كل من يعرف آيات اللَّه ولا يتبعها، ويزيد كفرًا وفسقًا بأنه يضل المؤمنين بما عرف من العلم.

ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كلام جميل في هذه الآية، فيقول: «إن هذا الذي ضربه اللَّه في هذه الآية، عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه، وقد تضمنت الآية من ذمِّه وجوهًا، نذكرها معلقين عليها، وهي:

أولًا: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا.
قلت: فلا تستطيع أن تعتذر عنه بالجهل، أما الذي وقع عن جهل فمن الممكن أن تقنعه وتبين له الحق فيرجع بأبسط طريقة، ولكن الذي فعل ذلك عن عمد فإنه يصعب رجوعه.

قال ابن القيم: **وثانيها**: أنه فارق الإيمان مفارقة مَن لا يعود إليه أبدًا.

وقد أخذها ابن القيم من قوله -تعالى- (فَانسَلَخَ مِنْهَا)، ومعناه: فارقها بالكلية ولا يمكنه أن يرجع لها، وبات لا يريد أن يذكر أمامه هدايته واستقامته قبل ذلك، والعياذ باللَّه!

الثالثة: أن الشيطان أدركه ولحقه وظفر به، بدلالة قوله -تعالى- (فَأَتْبَعَهُ).

فلم يقل اللّه - سبحانه وتعالى-: فاتّبعه الشيطان، لا، إنما قال: فأتبعه، وهذه تدل على أنه أدركه ومُكّن منه.

والرابعة: أنه غوى بعد الرشد، والغيّ هو الضلال في العلم والقصد.

قلت: وهذا من شر المصائب، وهو يفضي لسوء الخاتمة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وخامسها: أن اللّه -سبحانه وتعالى- لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان ذلك سبب هلاكه.

لأنه لم يرفع به رأسه، فصار وبالًا عليه، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[١]

وللرازي رَحِمَهُ اللَّهُ كلمة جميلة في هذا المثل القرآني؛ إذ يقول -عند تفسيره لهذه الآية-: «إن اللّه -سبحانه وتعالى- لم يمثّله بجميع الكلاب، وإنما وقع التشبيه بالكلب اللاهث، وأخسّ الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه العلم والدين، فمال إلى الدنيا وأخلد إلى الأرض كان مشبّهًا بأخس الحيوانات وهو الكلب اللاهث»[٢]

ويقول صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية: «ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد. إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقًا بالأرض،

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية (١/ ١٠١) بتصرف.

(٢) انظر تفسير الرازي (١٥/ ٤٧)، عند تفسيره لسورة الأعراف، الآيات (١٧٥-١٧٧)

ملوثًا بالطين، ثم إذا هو مسخٌ في هيئة الكلب، يلهث إن طُورد، ويلهث إن لم يطارد!

ذلك مثلهم! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم، ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخًا، ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.

وهل أسوأ من هذا المثل مثلًا؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها مَن يصنع بها هكذا؟ من يعريها من الغطاء الواقي والدرع الحامي، ويدعها غرضًا للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبدًا!!

وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد؛ إلا هذا القرآن العجيب الفريد؟!!

وبعدُ. فهل هو نبأ يُتلى؟ أم أنه مَثَل يُضرَب في صورة النبأ؛ لأنه يقع كثيرًا. ؟!

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبِّت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعًا!

لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله-

سبحانه- من ادعاه فقد ادعى الألوهية، ومن ادعى الألوهية فقد كفَر، ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضًا! ومع ذلك-- مع علمه بهذه الحقيقة، التي يعلمها من الدين بالضرورة - فإنه يدعو للطواغيت الذين يدَّعون حق التشريع، ويدَّعون الألوهية بادعاء هذا الحق. ممن حكم عليهم هو بالكفر! ويسميهم المسلمين! ويسمي ما يزاولونه إسلامًا لا إسلام بعده!

ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عامًا؛ ثم يكتب في حله كذلك عامًا آخر. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه.

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقًا لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟!

وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذي يحكيه اللَّه سبحانه عن صاحب النبأ؟!

إنه مَثَل لكل من آتاه اللَّه من علم اللَّه؛ فلم ينتفع بهذا العلم؛ ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة اللَّه، ليصبح تابعًا ذليلًا للشيطان، ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان!

ثم ما هذا اللَّهاث الذي لا ينقطع؟

إنه - في حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده في القرآن- ذلك اللَّهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التي من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم اللَّه آياته فينسلخون منها.

ذلك اللَّهاث القلق الذي لا يطمئن أبدًا، والذي لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه؛ فهو منطلق فيه أبدًا!

والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل بيئة. حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مَثَله، فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم اللَّه، ممن لا ينسلخون من آيات اللَّه، ولا يخلدون إلى الأرض؛ ولا يتبعون الهوى؛ ولا يستذلهم الشيطان؛ ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان، فهو مَثل لا ينقطع وروده ووجوده؛ وما هو بمحصور في قصة وقعت، في جيل من الزمان!

وقد أمر اللَّه رسوله ﷺ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات اللَّه، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها.

ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يُتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم اللَّه شيئًا أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة؛ وأن يصيروا إلى هذا اللَّهاث الذي لا ينقطع أبدًا؛ وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو، فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة!

ولقد رأينا من هؤلاء- والعياذ باللَّه- في زماننا هذا من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه؛ أو كمن يعضّ بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم يخشى أن ينازعه إياه أحدٌ من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يني يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا في جهنم! وما يني يلهث وراء هذا المطمع لهاثًا لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا!

اللَّهم اعصمنا، وثبت أقدامنا، وأفرغ علينا صبرًا، وتوفنا مسلمين»[١]

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٣٩٩ - ١٤٠٠) بتصرف واختصار.

العلماء المنافقون:

اهتم القرآن الكريم بالحديث عن النفاق والمنافقين اهتمامًا كبيرًا، إلى الحد الذي نزلت سورة كاملة باسمهم «المنافقون»، حتى قال ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم؛ وذلك لكثرتهم، وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم، وبليتهم على الإسلام وأهله»[١]

واهتمام القرآن بذكر أوصاف المنافقين والتحذير منهم، من شأنه أن يوحي بخطورة هذا النوع من الأعداء، وضخامة الدور الذي يقومون به في التأثير على المجتمع المسلم من الداخل.

والنفاق والمنافقون ليست مرحلة من التاريخ مرت وانتهت، بل هي باقية، فلا يخلو منهم زمان ولا مكان.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة»[٢]

وكذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ معللًا ذكرهم في القرآن: «واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلَفهم أمثالهم، فذكر سبحانه أوصافهم لأوليائه ليكونوا منهم على حذر»[٣]

- إن بلية الإسلام بالمنافقين شديدة جدًا. ولذلك فإن الفرَح بخبر موت أحدهم صحيح شرعًا؛ لأنه هلاك لأعوان الظلمة والمجرمين، وهلاك العبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٢).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٥٦).

ومن الولاء للمؤمنين الفرحُ بموت من يؤذيهم.

ولما مات الحجاج بن يوسف الثقفي وبلغ الخبر إبراهيم النخعي سجد وبكى من شدة الفرح وقال عمر بن عبد العزيز «اللَّهم كما أمته فأمت سنته».

واللَّه -عز وجل- مدح نفسه على هلاك الظالمين وقطع دابرهم فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

إن أهمّ ما يميز أهل النفاق أنهم أرباب خداع ومكر يجيدون التلون. فإنك تراهم يظهرون للناس في هيئة حسنة. يتعممون بعمائم العلم والورع ويلبسون لباس التعبد والتقى. ويتكلمون بمعسول الكلام وفصيح الخطاب كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ [المنافقون: ٤]، وهؤلاء القوم من أخبث الناس قلوبًا وأضعفهم جنانًا، ولذلك خاف النبي ﷺ على أمته من المنافق ذي الفصاحة والبيان فقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي: منافقٌ عليم اللسان»(١)

قال المناوي في التفسير «أي: كثير علم اللسان، جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفةً يتأكل بها، وأبهة يتعزز بها، **يدعو الناس إلى اللَّه، ويفر هو منه**»!

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل منافق عليم اللسان، أي: كثير علم اللسان، منطلق اللسان به، عالم للعلم، لكنه جاهل القلب والعمل، فاسد العقيدة، مغر

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٣) وابن أبى الدنيا في ذم الغيبة (٨) وفى الصمت (١٤٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧٧)، والضياء (٢٣٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ١١).

للناس بشقاشقه وتفحصه وتقعره في الكلام اتخذ العلم حرفة يتأكل بها، وأبهة يتعزز بها، يدعو الناس إلى اللَّه، ويفر هو منه»[١]

تأمل قوله: «عالم للعلم» فلا يغرّكم «زِيّ العلماء»؛ إنما العبرة بالمواقف، في الولاء للمسلمين والبراءة من الظالمين.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما «لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء»[٢]

وقيل لسفيان بن عيينة: «أي الناس أطول ندمًا؟ قال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف، إلى مَن لا يشكره، وأما عند الموت فعالم مفرط»[٣]

وفيما رواه أحمد عن عمر: «أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون»[٤]

وعند أحمد عن أبي ذر: « أخوف على أمتي من الدجال الأئمة المضلون»[٥]

وعند البزار عن جندب عن حذيفة - وحسنه - «إنما أتخوف عليكم رجلًا قرأ القرآن حتى إذا رئي عليه بهجته، وكان ردءًا للإسلام، اعتزل إلى ما شاء اللَّه، فانسلخ منه وخرج على جاره بسيفه رماه بالشرك»[٦]

---

(١) فيض القدير، (١/ ٥٢، ٣٠٩).
(٢) انظر الإحياء للغزالي (١/ ٥٩).
(٣) (السابق).
(٤) السلسلة الصحيحة للألباني (٤/ ١٠٩).
(٥) أخرجه أحمد (٥ / ١٤٥).
(٦) هذا الحديث رواه ابن حبان في صحيحه بلفظ قريب، وقد رواه أبو يعلى بنفس =

وفي الأثر: «إني لا أتخوف على أمتي مؤمنًا ولا مشركًا؛ أما المؤمن فيحجره إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقًا عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون»(١)

وفي الطبراني عن معاذ: «إني أخاف عليكم ثلاثًا، وهن كائنات: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تفتح عليكم»(٢)

وروى الطبراني أيضًا: «لا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إلا ثَلاثَ خِلالٍ: أَنْ يُكْثَرَ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ فَيَتَحَاسَدُوا فَيَقْتَتِلُوا، وَأَنْ يُفْتَحَ لَهُمُ الْكُتُبُ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنُ يَبْتَغِي تَأْوِيلَهُ، وَلَيْسَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الأَلْبَابِ، وَأَنْ يَرَوْا ذَا عِلْمِهِمْ فَيُضَيِّعُوهُ وَلا يُبَالُونَ عَلَيْهِ»(٣)

= السند بلفظ قريب من هذا، وجود إسناده ابن كثير فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٥] قال: وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام، حدثنا الحسن حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد أن حذيفة يعني ابن اليمان حدثه قال: قال رسول اللَّه: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء اللَّه، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك، قال: قلت يا نبي اللَّه أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: بل الرامي. إسناد جيد، وقد صحح الحديث الشيخ الألباني في الصحيحة، فراجع كلامه فيها.

(١) هذا الحديث تفرد بإخراجه الطبراني في معجمه الأوسط (٧/ ١٢٨، رقم ٧٠٦٥)، وكذا في الصغير (٢/ ٢٠٠، رقم ١٠٢٤)، وقال الهيثمي (١/ ١٨٧): فيه الحارث الأعور، وهو ضعيف جدًا.

(٢) رواه الطبراني موقوفًا على معاذ، انظر: كنز العمال، رقم: (٤٣٨٧٩).

(٣) رواه الطبراني عن أبي مالك الأشعري، كنز العمال، رقم: (٣٧٥٠١).

وفي هذا المعنى قال عمر بن الخطاب: «إنما أخاف عليكم كل منافق عليم يتكلم بالحكمة، ويعمل بالجور»[١]

ومن أقبح صفات علماء السوء هي قدرتهم على ليّ أعناق الأحكام الشرعية وإصدار الفتاوى بما يتناسب مع المواقف السياسية للحكام، أو ما يوافق هوى من يرجون منه نوالًا، أو يحذرون منه نكالًا، فيقومون بحشر أدلة القرآن والسنة التي ليس لها أية علاقة بما يتحدثون عنه، ثم يلوونها ليًّا لتخدم أغراض هؤلاء وأولئك.

ولا تكاد تجد عالمًا يتزلف للحكام والسلاطين إلا وهو على شعبة أو أكثر من شُعب النفاق، فهو يستحل الكذب، كما أنه خائن غير مؤتَمن على العلم الذي حباه اللَّه به، وخائن للميثاق الذي أخذه اللَّه على العلماء ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، كما أنه ليس عنده ورع أو أدنى حرج من قبول الهدايا والرشاوى، ثم يلتمس المخارج لنفسه بتسميتها بغير اسمها، أو تأويل قبولها تحت أيّ مسوغ!

وعلماء السوء يستعملون نفوذهم ومناصبهم في الحصول على المال الحرام بأي سبيل. يأتون المناصب فقراء، ويتركونها وقد امتلكوا الملايين والقصور، وكوَّنُوا ثروة تُوجب المساءلة.

كما أن فيهم من اليهود وجه شبه، ولذلك لُعِنُوا في الدنيا ويلعنهم اللاعنون في الآخرة، فكما لعن اللَّه -تعالى- اليهود بسبب جحودهم

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (ص ٣٢، رقم ١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٨٤ رقم ١٧٧٧).

الحق الذي عرفوه، قال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، فكذلك لعن اللَّه -تعالى- العلماء المنافقين؛ لأنهم جحدوا عن علم.

والآية الكريمة -وإن كانت قصد بها اليهود- لأنهم يعرفون النبي محمدًا - صلى اللَّه عليه وآله وسلم- كما يعرفون أبنائهم ثم جحدوا هذه المعرفة وأنكروها، فلذلك لعنهم اللَّه بكذبهم ونفاقهم وتحريفهم للحق.

وبذلك لا يكون الاستدلال بهذه الآية على علماء السوء بعيدًا، وهذه الآية الكريمة تقول لمفتيي الضلال وعلماء النفاق: إنكم تعرفون الحق وتحرِّفونه فأنتم مشمولون بلعن اللَّه وملائكته وخلقه أجمعين.

علماء طلاب الشهرة.. وقود النار:

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه -ﷺ- يقول: «إنَّ أولَ النَّاسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليهِ: رجلٌ استُشْهِدَ، فأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفهُ نِعَمَهُ، فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدتُ، فقال: كذبتَ، ولكنكَ قاتلتَ لأن يقالَ: جَرِيءٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وَجْهِهِ، حتى أُلقيَ في النَّارِ. **ورجلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وقرأَ القرآن، فَأُتيَ به، فعرَّفهُ نِعَمَهُ فَعرفَهَا، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تَعلَّمْتُ العِلْمَ وعلَّمْتُهُ، وقرأْتُ فيكَ القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنكَ تعلَّمْتَ العلم ليقال: عالمٌ، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقيَ في النَّارِ.** ورجلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأَعطَاهُ من أَصنافِ المال كُلِّهِ، فأُتيَ بِهِ فعرَّفهَ نِعَمه، فعرفها، قال: فما عَمِلْت فيها؟ قال: ما تَركتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنفَق فيها إلا

أَنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنكَ فعلت ليُقَال: هو جَوادٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه ثم أُلقيَ في النَّارِ»[١]

وروى الترمذي عن ابن عمر: «من تعلم العلم لغير اللَّه -تعالى- فليتبوأ مقعده من نار»[٢]

وبذلك يكون العالم الذي يطلب الدنيا بعلمه من شر الناس عند اللَّه يوم القيامة.

وفي الحديث: «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار»[٣]

وروى الطبراني عن معاذ: «من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء في المجالس لم يرح رائحة الجنة»[٤]

فالحاصل من هذه الأحاديث وأشباهها أن كل الأعمال تحتاج إلى الإخلاص، وإذا لم يضبط العالم الإخلاص في نفسه لن يضبطه في غيره، وينبغي على كل مسلم ألا يعمل عملًا إلا ويراجع نيته فيه، أحبه الناس أم كرهوه، وهو ما يسمى باستواء الذم والمدح، فلا يضره إذا قال كلمة الحق مذمة الناس ولا مدحهم، فعمله للَّه وحده.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب العلم، (٢٢٢).

(٣) حديث حسن، صحيح الجامع رقم ٦٣٨٢

(٤) معجم الطبراني برقم ١٦٥٧٥، ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»(١/ ١٨٤) وقال: «رواه الطبراني في الكبير وفيه عمرو بن واقد وهو ضعيف نُسب إلى الكذب».

وإنك لتجد لعلم مثل هذا الصنف من العلماء رائحة زكية، أما من يقصد الناس بعمله ويريد مدحهم، فنذكره بما قاله اللَّه -تعالى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وليعلم هذا وأمثاله: أنه لن ينال إجماع الناس على محبته واتباعه، إلا أن يكون الناس كلهم منافقين، أو يكون هو المنافق، فإجماع الناس لم يحدث حتى على النبي ﷺ.

وفي تلبيس إبليس على العلماء يقول ابن الجوزي: «وقد لبَّس إبليس على الكاملين في العلوم، فيسهرون ليلهم ويدأبون نهارهم في تصانيف العلوم، ويريهم إبليس أن المقصود نشر الدين، ويكون مقصودهم الباطن انتشار الذكر وعلو الصيت والرياسة.

قال: وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انتفع بمصنفاته الناس من غير ترديد اسمه، أو قرئت على نظيره في العلم فرح بذلك إن كان مراده نشر العلم، ولذلك قال بعض السلف: ما من علم علمته إلا أحببت أن يستفيده الناس من غير أن ينسب إليّ.

ثم قال - أي: ابن الجوزي-: ومنهم من يفرح بكثرة الاتباع ويلبِّس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب واستطارة الذكر، ومن ذلك العجب بكلماتهم وعلمهم.

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه، وما هذه صفة المخلص في التعليم؛ لأن مثل المخلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى للَّه سبحانه وتعالى، فإذا شفي بعض

المرضى على يد طبيب منهم فرح الآخر.

ثم قال: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبي من الأنصار، ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا ودَّ أن أخاه كفاه، ولا يحدِّث بحديث إلا ودَّ أن أخاه كفاه»[1]

علماء غلاظ الأكباد والقلوب:

لا يتوقع من العالم أن يكون جافًا يابسًا غليظ القلب، لا يتأثر بما يرويه، ولا ينفعل بما ينقله؛ لأن العلم الغضّ لا يخرج إلا من قلب مفعَم بالتقوى والورع، وفي «قواعد التصوف» لزروق: قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»[2]

يعني بالتصوف: العلم الباعث على صفاء القلب وحضوره لا شطحات الصوفية المجافية لحقيقة العلم.

قال الذهبي: «والعالم إذا عَرِي من التصوف والتأله فهو فارغٌ، كما أن الصوفي إذا عري من علم السنة زلَّ عن سواء السبيل»[3]

إن خطورة الرجل الفاجر المتدثر بعلمه شديدة على الدعوة، فهو فاجر جريء، يقرأ كتاب اللّه -تعالى- لا يرعوي إلى شيء منه، فيكون فتنة للناس.

(١) تلبيس إبليس، (ص١٥٩ - ١٦٠).
(٢) قواعد التصوف (ص ١٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤١٠).

وهذا الصنف ليس لهم فضل على الأنعام، بل الأنعام أفضل منهم؛ لأنهم وإن فضلوا بالعلم، إلا أنهم اشتهوا شهوة الأنعام. فهم أضل!

والكلام سهل ميسور، لكن تحقيقه وتمثله واستشعاره لا يقوم به إلا الأقلون، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: «عليك بتقوى اللَّه فإنها هي التي لا يُقبل غيرُها، ولا يُرحم إلا أهلُها، ولا يُثاب إلا عليها، وإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل»[١]

علماء جبابرة:

هم صنفٌ من الناس تعلموا العلم، وبلغوا به مبلغًا عظيمًا، وسمعوا الإطراء والمديح فعظمت نفوسهم في نفوسهم، وامتلأت قلوبهم كبرياء وفخرًا. ، فاستكبروا على نصح الناصحين، واحتجبوا عن سؤال السائلين!

وفي الأثر تعوذوا باللَّه من فخر القراء، فإنهم أشد فخرًا من الجبابرة، ولا أحد أبغض إلى اللَّه -تعالى- من قارئ متكبر.

وعن الفضيل بن عياض، قال: «إن آفة القراء العجب، واحذروا أبواب الملوك فإنها تزيل النعم. فقيل: كيف؟ قال: الرجل يكون عليه من اللَّه نعمة ليست له إلى خلق حاجة، فإذا دخل إلى هؤلاء فرأى ما بُسط لهم في الدور والخدم استصغر ما هو فيه من خير، ثم تزول النعم».

وفي الأثر عن أبان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يؤتى بعصابة من أمتي يوم القيامة، وهم القراء، فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: إياك ربنا، قال:

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢٠١).

فمن كنتم تسألون؟ قالوا: إياك ربنا، قال: فمن كنتم تستغفرون؟ قالوا: إياك ربنا، فيقول: كذبتم عبدتموني بالكلام، واستغفرتموني بالألسن، وفررتم مني بالقلوب، فيُنْظَمُون في سلسلة، ثم يُطاف بهم على رءوس الخلائق، فيقال: هؤلاء كذابو أمة محمد[1]

وقد رأينا من بعضهم غطرسة وانتفاشًا دونهما انتفاش فرعون وهامان، وحبًّا للدنيا وحرصًا على المال دونه تشبث قارون، وتحاسدًا وحقدًا على نظرائهم دونه تهارش الكلاب على الجيف، وغِلظة وكنودًا دونها قسوة الحجر والجلمود!! فأين أخلاق العلماء إذن؟!

قال ابن الجوزي في كتابه الماتع «تلبيس إبليس»: «وقد لبَّس إبليس على أقوام من المحكمين في العلم والعمل من جهة أخرى، فحسَّن لهم الكبر بالعلم والحسد للنظير، والرياء لطلب الرياسة، فتارة يريهم أن هذا كالحق الواجب لهم، وتارة يقوِّي حب ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمهم بأنه خطأ.

وعلاج هذا -لمن وُفِّق- إدمان النظر في إثم الكبر والحسد والرياء، وإعلام النفس أن العلم لا يدفع شر هذه المكتسبات، بل يضاعف عذابها لتضاعف الحجة بها، ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين، استقر في نفسه فلم يتكبر، ومن عرف اللَّه لم يراء، ومن لاحظ جريان أقداره على مقتضى إرادته لم يحسد!

وقد يدخل إبليس على هؤلاء بشبهة ظريفة فيقول: طلبكم للرفعة ليس

(١) أخرجه الديلمي (٥/ ٤٦١ ، رقم٨٧٥٨) وفي سنده مقال.

بتكبر، لأنكم نواب الشرع، فإنكم تطلبون إعزاز الدين ودحض أهل البدع، وإطلاقكم اللسان في الحساد غضب للشرع؛ وما تظنونه رياءً فليس برياء؛ لأن من تخاشع منكم وتباكى اقتدى به الناس»[١]

العلماء. ونار الحسد والكبر:

ليس العلماء بمعصومين؛ فهم بشر من البشر، وإن كان ينبغي عليهم أن يكونوا الأبعد عن مواطن الزلل بما معهم من نور العلم وهداه.

وقد فطِن أسلافنا لهذه المقاتل، ولفتوا الأنظار إليها، وقد كتب ابن الجوزي كتابه «تلبيس إبليس»، وذكر فيه المداخل التي يدخل منها الشيطان إلى النفوس، وعقد فصلًا لتلبيسه على العلماء.

وأمراض الرياء والعجب والغرور، والتسرع في الفتوى، وادعاء العلم، والتحاسد، والقول على اللّه بغير علم. أمراضٌ ليست بعيدة عن العلماء.

ومن ذلك الاستكبار عن سماع الحق، وقد قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ناظرت أحدًا فأنكر الحجة إلا سقط من عيني، ولا قَبِلَها إلا هِبْته، وما ناظرت أحدًا فباليت مع من كانت الحجة، إن كانت معه صرت إليه»[٢]

وتقدم ما روي عن الحسن عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «تعوذوا باللّه من فخر القراء؛ فإنهم أشد فخرًا من الجبابرة، ولا أحد أبغض إلى اللّه -تعالى- من قارئ متكبر»[٣]

---

(١) تلبيس إبليس، (ص١٥٩).
(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطة (١/ ١٢٧).
(٣) أخرجه الديلمي (٢/ ٤٩، رقم ٢٢٨٢).

وكما قال ابن الجوزي: «وقد يكون الواعظ صادقًا قاصدًا للنصيحة، إلا أن منهم من أشرب الرئاسة في قلبه مع الزمان فيحب أن يُعظَّم، وعلامته أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه أو يعينه على الخلق كرِه ذلك، ولو صح قصده لم يكره أن يعينه على هداية الخلق»[١]

وروى الخطيب - عن ابن عمر قال: «يأتي على الناس زمان يحسد الفقهاء بعضهم بعضًا، ويغار بعضهم على بعض كتغائر التيوس بعضها على بعض».

وقد حسد أناس منسوبون للعلم الإمام البخاري والإمام أحمد وابن تيمية، ووشوا بهم عند شانئيهم من ظلمة الولاة ليتخلصوا منهم، والقصص في هذا الجانب كثيرة، وكم هي دامية!! لأنها صدرت عن علماء.

ولم يسلم كذلك من هذه الوشايات حسن البنا، وعمر المختار، وسيد قطب، والمودودي، وغيرهم من الدعاة، وقد قيل عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأنه خارجي، ولقد كاد له وشنَّع عليه وعاداه علماءُ السوء، وأفتوا للحكام والسلاطين بأن القائم بدعوة التوحيد خارجي!

ومن قبل قام علماء اليهود بالوشاية بالمسيح -عليه السلام- عند ملك الرومان ليتخلص منه، ولا عجب، فالغاية عند هؤلاء المرضى تبرر الوسيلة!

إن هذا الصنف من الشيوخ يريدون أن تخبو جذوة هذا الدين إلا ما يخرج للناس عن طريقهم الوحيد، كأنهم المصدر الحصري لهذا الدين!

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٥٢).

وقد روى الطبراني عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، عن رسولِ اللّه -ﷺ- قال: «ليأتيَنَّ على الناس زمانٌ يتعلمونَ فيه القرآنَ؛ يتعلمونه ويقرءونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعَلِمْنا، فمن ذا الذي هو خيرٌ منَّا؟! فهل في أولئِكَ من خير؟». قالوا: يا رسولَ اللّه مَن أولئك؟ قال: «أولئك منكم، وأولئك هم وقودُ النار»[1]

وهذا المنزلق الخطير أودى بكثير من العلماء -للأسف الشديد-، وهذا ما حذر منه النبي ﷺ بقوله: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[2]

وفيهم يقول ابن الجوزي: «بعض العُبّاد والزهّاد قلوبهم راغبة في الرياسة وطلب الجاه، فتراهم يترصّدون لزيارة الأمراء إياهم، ويكرمون الأغنياء دون الفقراء، ويتخاشعون عند لقاء الناس كأنهم قد خرجوا من مشاهدة! وربما ردَّ أحدهم المال لئلا يقال: قد بدا له من الزهد! وهُم من تردُّدِ الناسِ إليهم وتقبيل أيديهم في أوسع بابٍ من ولايات الدنيا؛ لأن غاية الدنيا الرياسة»[3]

بالملح يصلح ما يُخشى تغيره … فكيف بالملح إن حلت به الغِيَرُ؟!

تأييد الدين بالرجل الفاجر:

لا يخدعنك رجل تحدث بالدين، وتحققت على يديه بعض النجاحات

---

(١) أخرجه الطبراني (١٢/ ٢٥٠، رقم ١٣٠١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب: (١٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح، وصححه الألباني.

(٣) تلبيس إبليس (ص١٣٧).

لصالح الدعوة، وتعلقت به قلوب بعض المسلمين والمسلمات، فينسيك هذا الإنجاز جرائمه وجرائره في جوانب أخرى كان هو فيها طرفًا أصيلًا في تسديد ضربات للإسلام! وإن قام هو بنصرته في جانب آخر!!

فقد يصدر الانحراف من رجل التف حوله الناس، ووُضعت له المحبة في قلوب الخلق -بعض الوقت-، ولكن هناك مواطن تزل فيه الأقدام، ولذلك قال ابن مسعود: « مَن كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفِتْنَةُ»[١]

وفي البخاري عن أبي هريرة ﵁ قال: «شهدنا مع رسول اللّه ﷺ فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالًا شديدًا، فأصابته جراحة فقيل: يا رسول اللّه: الذي قلت: إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالًا شديدًا وقد مات. فقال النبي ﷺ: إلى النار. قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه. فأُخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «اللّه أكبر، أشهد أني عبد اللّه ورسوله»، ثم أمر بلالًا فنادى بالناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن اللّه ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٢]

ومعنى ذلك: أن اللّه لينصر دين الإسلام ويعزه بالرجل الفاسق غير العادل.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨١٠)، والهروي في «ذم الكلام» (ص١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٧)، ومسلم (١١١).

وروى الطبراني عن أبي بكرة: «ليؤيدن اللَّه -عز -وجل هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»[١]

وعن الحسن قال: «يبعث اللَّه بهذا العلم أقوامًا يطلبونه، ولا يطلبونه خشية، وهو عليهم حجة، إنما يبعثهم في طلبه لكيلا يضيع العلم»

علماء لصوص وقطاع طرق:

عُلَمَاءُ السُّوْءِ، وَشُيُوْخُ الضَّلالةِ، نوّابُ إبْلِيْسَ، وَأَئِمَّةُ كلِّ مُفلِسٍ بَئِيْسٍ، الذِيْنَ زَينوْا لهمْ سُوْءَ أَعْمَالِهِمْ، وَقبيْحَ أَفعَالِهِمْ، فهم أخطر دعاة الفساد.

وقد قيل: ويل للعالم من الجاهل مرة، وويل للجاهل من عالم السوء ألف مرة.

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه قال: قال عيسى عليه السلام: «يا علماء السوء! جلستم على أبواب الجنة فلا أنتم تدخلونها، ولا تدعون المساكين يدخلونها».

وقال المسيح عليه السلام: «يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رءوسكم، والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء، وعملكم داء، مثلكم مثل شجرة الدفلى، تعجب من رآها، وتقتل من أكلها»[٢]

وفي أخبار داود عليه السلام حكاية عن اللَّه تعالى-: «إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، يا داود لا تسأل عني عالمًا قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي، **أولئك قُطاع الطريق على**

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٤٧٢)، والنسائي في الكبرى (٨٨٨٥)، وصححه الألباني.
(٢) انظر: اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي - المُقَدِّمَة.

عبادي! يا داود إذا رأيت لي طالبًا فكن له خادمًا؛ يا داود من رد إليَّ هاربًا كتبته جهبذًا، ومن كتبته جهبذًا لم أعذبه أبدًا».

وأوحى اللَّه -تعالى- إلى داود عليه السلام: «يا داود! لا تجعل بيني وبينك عالمًا مفتونًا بالدنيا، فيصدّك عن طريق محبتي، فإن **أولئك قطاع طريق عبادي المريدين**، إن أدنى ما أنا صانع بهم، أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم».

وقال ابن عقيل: «يا علماء السوء، ما نقنع منكم بما أنتم عليه من تصاريفكم فإن طبيبًا به مثل مرضي يضيق على الأغذية ولا يحتمي. مشكوك في صدقه عندي، فالحظوا حال من أنتم ورثته. **يا سباع**. **يا قطاع الطريق**، لا تُرون إلا على مطارح الجيف».

ويقول ابن القيم في فوائده: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًا، لكانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء، **وفي الحقيقة قطاع طرق**»(١)

ولعل ذلك هو السر في انصراف الناس عن كثير من العلماء في هذا الزمان؟

قال علي بن أبي طالب: «إنما زهد الناس في طِلب العلم، لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم».

---

(١) الفوائد (ص٦١).

وقال رسول اللَّه عيسى ابن مريم عليه السلام مخاطبًا هذا الصنف من العلماء: «إلى متى تصفون الطريق للمدلجين، وأنتم مقيمون مع المتحيرين؟!».

وقال عليه السلام «مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء مثل قناة الحش، ظاهرها جصّ وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى»[(١)]

وروى أبو سعيد النقاش في معجمه، وابن النجار -عن أبي الدرداء- وعند ابن عساكر عن عائشة بمعناه-: «أنزل اللَّه في بعض كتابه وأوحى إلى بعض أنبيائه: قل للذين يتفقهون بغير الدين، ويتعلمون لغير العلم، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون لباس مسوك الكباش، وقلوبهم قلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصبر، إياي يخدعون؟ أو بي يستهزئون؟ فبي حلفت: لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيرانا»[(٢)]

بائعو العلم في سوق المصالح!

من أسوأ السوء أن ترى إنسانًا كرّمه اللَّه بالعلم وشرّفه، فيحيل هذه النعمة إلى مصيدة يصيد بها لعاعة الدنيا، فيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير!

وفي الحديث: «ويل لأمتي من علماء السوء، يتخذون هذا العلم تجارة يبيعونها من أمراء زمانهم ربحًا لأنفسهم، لا أربح اللَّه تجارتهم»[(٣)]

---

(١) ربيع الأنوار للزمخشري (١/ ٣٢٤).

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، بَابُ ذَمِّ الْفَاجِرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

(٣) الحاكم في تاريخه عن أنس وأخرجه أيضًا: الديلمي (٤/ ٣٩٨، رقم ٧١٥٤).

ولذلك قال يحيى بن معاذ: «إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طُلب بهما الدنيا».

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لعلماء الدنيا: «يا أصحاب العلم: قُصوركم قيصرية! وبيوتكم كسروية! وأثوابكم ظاهرية! وأخفافكم جالوتية! ومراكبكم قارونية! وأوانيكم فرعونية! ومآثمكم جاهلية! ومذاهبكم شيطانية! فأين الشريعة المحمدية؟!

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة، وأنشدوا:

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشتري دنياه بالدين أعجب

وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وعن أبي هريرة قال: «من أكل بالعلم طَمس اللَّه على وجهه، ورده على عقبيه وكانت النار أولى به».

وفي الأثر «من أشراط الساعة أن تعطل السيوف من الجهاد، وأن تختل الدنيا بالدين»[1]، أي: تُطلب الدنيا بعمل الآخرة، يقال: ختله يختله إذا خدَعه وراوَغه، وختل الذئب الصيد إذا تخفى له[2]

وروى الديلمي عن ابن عباس: «العالم عالمان: عالم طلب بعلمه اللَّه لم يأخذ عليه طمعًا ولم يشتر به ثمنًا، وعالم طلب بعلمه الدنيا اشترى به ثمنًا، وأخذ عليه طمعًا، بخل به على عباد اللَّه، يلجمه اللَّه يوم القيامة

(١) غريب الحديث للخطابي (١/٥٥٨).

(٢) النهاية (٢/٩).

بلجام من نار فينادي عليه ملك من الملائكة: ألا إن هذا فلان ابن فلان آتاه اللَّه -تعالى- في دار الدنيا علمًا، فاشترى به ثمنًا، وأخذ عليه طمعًا، فلا يزال ينادي عليه حتى يفرغ من الناس، ثم يصنع اللَّه به ما أحب»[1]

ومن كلام عيسى ابن مريم -عليه السلام-: «تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل؟! ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل؟

ويلكم علماء السوء؛ الأجر تأخذون؟ والعمل تضيعون؟ فيوشك رب العمل أن يطلب عمله، وتوشكون أن تخرجوا من الدنيا العريضة إلى ظلمة القبر وضيقه.

كيف يكون من أهل العلم من اتهم اللَّه فيما قضى، فليس يرضى بشيء أصابه؟!

كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثر عنده من آخرته، وهو في دنياه أفضل رغبة؟!

كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به، ولا يطلبه ليعمل به؟!».

علماء بذلوا أعراضهم على فراش الأنظمة:

إن العالم الذي قَبِل أن يبيع دينه بعرَض من أعراض الدنيا، لا يتورع أن يبيع عِرضه ويقبل الدياثة أيضًا، وهل العرض إلا جزء من الدين؟ وهؤلاء لا يعجزهم أن يجدوا لأنفسهم مخارج شرعية لما وقعوا فيه من المخازي.

---

(١) أخرجه الديلمي (٣/ ٧٤)، رقم (٤٢٠٧)، وانظر: جامع الأحاديث (٧٤١٩).

ومن النماذج الفذة لعلماء السوء في العصر الحديث الشيخ خليل البكري الذي زامن احتلال نابليون لمصر.

ومعلوم أن معظم العلماء قاطعوا نابليون، ولم يأكلوا على موائده، أما شيخنا هذا فجامَله في كل شيء بدءًا من مسامرته وشرب الخمر معه!، وانتهاءً بغض نظره عن الخنا والزنا، وتشجيع ابنته لتكون محظية لنابليون، وذلك مقابل بعض الامتيازات المادية والرئاسية!!

ومعلوم أن المرأة إذا اتخذت عشيقة أو خليلة خارج إطار الزواج تُدعَى زانية، ولكن الدلالة اللفظية لكلمة محظية تفيد بأنها محظوظة؛ لكون أن من يغشاها هو نابليون نفسه فيا للخسة والهوان!

وكانت نهايتها المؤلمة أن قُتلت بعد خروج نابليون من مصر، وكان أبوها هو من دلَّ الثوار على مكانها، وقد تم عزل الشيخ الديوث من رياسة السجادة البكرية، ونُزعت أملاكه، وأكمل باقي عمره فقيرًا يتسوّل الناس!

فعندما يأتي الكلام عن الشيخ خليل البكري نذكر أنّ جريمته هي سكوته وتشجيعه لعلاقة محرّمة بين ابنته والطاغية الفرنسي مقابل بعض الحطام الدنيوي

وآسفني أن سمعت أحد المحسوبين على الدعوة من شيوخ السلطة المعاصرين يفتي بترك الزوج لزوجته لقمة سائغة لمن يريدون اغتصابها إذا خاف على نفسه؛ لأن سلامة نفسه -بدعواه - في مثل هذا الموقف أولى!!

ومن بجاحته أهدر كل الأدلة التي تأمر المسلم بالدفاع عن عِرضه وماله،

وازداد فُجرًا يوم نسب هذا المنهج الأعوج لنبي كريم من أنبياء اللَّه -تعالى- وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام!!

بيع النصوص وبيع الفتاوى:

محاربة الشريعة من الداخل عن طريق علماء السوء تأخذ مسارين؛ الأول: تحريف النص نفسه، وهذا ما وقع فيه علماء بني إسرائيل؛ لأن الأمة كانت معزولة عن كتابها، فسهل على رجال الدين تحريفها في غيبة وعي الأمة، فحرفوا الكلم عن مواضعه، واشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا، فبئس ما يشترون.

كذب علماء بني إسرائيل على ربهم، وباعوا النصوص لمن يدفع أكثر، ومما سهل عليهم ذلك أن عوام الناس كانوا محجوبين عن النص المقدَّس تلاوةً وفهمًا، مما جعلهم تحت رحمة العلماء -المتصرفين الوحيدين في النص المقدس- فسهل على العلماء التحريف، وهم في مأمن من ملامة الناس، وإن اضطروا لسبك الحيلة لووا لسانهم بالعبارات بما يُشعر السامع أنها من عند اللَّه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿يَلْوُۥنَ﴾ أي: يفتلون ﴿أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: التوراة، فيميلون عن المنزَّل إلى المُحرَّف، ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: لتظنوا أن ذلك المحرَّف من التوراة، ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه ليس من عند اللَّه.

قال ابن عباس: نزلت في اليهود والنصارى جميعًا، حرَّفوا التوراة والإنجيل، وألحقوا به ما ليس منه، وأسقطوا منه الدين الحنيف، فبيَّن اللَّه كذبهم.

وقيل: نزلت في الرجم؛ حيث كتموا آية الرجم، وألقى قارئ التوراة يده على آية الرجم، وقرأ ما حولها، فقال له ابنُ سلام: «ارفع يديك، فإذا آية الرجم تلوح»[١]

فكان علماء بني إسرائيل يحرفون الكلم عن مواضعه، ويزيدون وينقصون في الكتاب بغرض تضليل الناس، أو لينالوا من جراء ذلك ثمنًا قليلًا.

وهذه الآية تنسحب على علماء السوء في كل عصر ومصر، الذين يدلِّسون في النصوص والمرويات، ويتاجرون بالموضوعات، ليتوصلوا إلى الفتيا بما يخدم شهواتهم أو من يوالونهم.

وطريق الانحراف الثاني: ليّ النص الصحيح عن طريق الفتاوى المنحرفة، فالانحراف هنا بالفتوى لم يتناول أصل النص، وهذا المسلك لا يزال موجودًا إلى يوم الناس هذا.

ومن رحمة اللَّه بأمة الإسلام أن أبقى اللَّه -تعالى- نصوص دينها محفوظة، فضاقت دائرة الانحراف من قِبل الشيوخ، وانحسر التحريف في الفتاوى لا النصوص، مما مكَّن للأمة أن ترد الفتيا على قائلها ألف مرة؛ لأن النص بذاته محفوظ لم يحرَّف، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

(١) انظر تفسير ابن عجيبة (١/ ٢٩٧).

ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أزمة ضمير لا أزمة دليل:

الجهل دواؤه العلم، وذلك بشرط أن يعترف الجاهل بجهله وأن ينصاع للدليل، وهنا تكون المشكلة يسيرة؛ لأن نور العلم كفيل بتبديد ظلمات الجهل -وإن كثرت-.

أما الشفاء من ضلالات الهوى فإنه صعب عزيز، إلا أن يعين اللَّه عليه، وأصعب من ذلك أن يجتمع الجهل والهوى فيكون الشر مستطيرًا ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقد انتهى الأمر بكثير من علماء بني إسرائيل إلى التحريف والتبديل وتحكيم الهوى في الدليل، والحِجاج بالباطل لدحض الحق، واستخدام العلم لإشباع شهوات البطون والفروج وحب التملك.

وذلك لأنه لما وقفت النصوص حاجزًا بينهم وبين مآربهم تخلصوا منها وباعوها بعرض الدنيا ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

والهوى يعمي ويصم، وهو شر إله عُبِدَ من دون اللَّه تعالى، وقد كان إبليس -لعنه اللَّه- من أعلم الخلق، لكن لم ينفعه علمه بسبب الغرور والكبر.

إن الأزمة الحقيقية أزمة ضمير لا أزمة دليل، قال -تعالى- في شأن علماء بني إسرائيل: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الجاثية: ١٧]، ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

قال ابن القيم: «من لم يعرف الحقَّ فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيرَه عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه، وقد أمرنا -سبحانه وتعالى- أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم اللّه عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال لأنهم أمةُ جهلٍ، واليهود أخصَّ بالغضب لأنهم أمة عناد، وهذه الأمة هم المنعم عليهم.

ولهذا قال سفيان ابن عيينة: «من فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود؛ لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه».

وفي المسند والترمذي من حديث عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: «اليهود مغضوبٌ عليهم والنصارى ضالون»[1]

وقال ابن كثير: «أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال -تعالى- عنهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾، وأخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال -تعالى- عنهم ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار.

شيوخ البروتستانت:

حينما التفت أوربا على الدين، وأبقت منه على القشرة الخارجية، قبل رجال الدين عندهم بالصفقة بعد لأيٍّ، فقاموا بحذف كل ما يتعارض مع مصالح الطغاة والجبابرة، واقتصر دورهم على تركيع الناس للظالمين، وأقنعوهم بوجوب احتساب مصابهم عند اللّه، وإلا فهو الاعتراض

---

(١) انظر: إغاثة اللّهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١/ ٢٤).

والكفر بقضائه؛ لأن مملكتهم ليست في هذا العالم، ومن سيَّرك شبرًا فامش معه ميلًا، وأحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم، وإذا لطمك أحد على خدك الأيمن فأدر له الأيسر. !! وخاضت أوربا - باسم الدين- صراعًا دمويًا كئيبًا بين فِرَقها الدينية المختلفة حول صكوك الغفران وبيع الجنان، وقرارات الحرمان. إلخ.

بعد كل هذا قررت أوربا أن تلجم نزوات البابوات، وأن تحدِّد لهم دائرة يحرم عليهم تجاوزها، وظهر البروتستانت الذين ينزعون عن الدين ورجاله كل سلطان من شأنه أن يمنهج للناس حياتهم؛ لأن الرهبان أساءوا استغلال نفوذهم، وجروا الكوارث على البلاد والعباد، فكان لا بد من تحجيمهم، لا سيما والدين الذي بين أيديهم يأمرهم صراحة أن يدَعوا ما لقيصر لقيصر وما للَّه للَّه.

ويبدو أن اللعبة أعجبت سدَنة النظام العالمي، فأرادوا أن يستنسخوها عندنا في الشرق الإسلامي، ونسوا أو تناسوا أن الإسلام على المستويين -النظري والتطبيقي- لم يصدر منه ما يشابه أو يقارب ما صدر عن الكنيسة ورجال الدين في العصور الوسطى في أوربا.

فالإسلام دين يحض على العلم، ويحترم العقل، ويعطي القوس باريها في كل التخصصات، ولا يحكم حكامه بالحق الإلهي، لكن أريد له أن يتحمل التهم عن غيره، ويزوى عن الإدارة والتوجيه بدعوى أن دينًا ما سبق تحريفه، أساء أتباعه سياسة أمور الناس في بعض العصور في بلاد ما وراء البحار!!

وجاء نابليون ومن بعده لاستنساخ شيوخ مسلمين على طريقة النصارى البروتستانت!

وبرغم التصادم الواضح بين حكم الشريعة وحكم المبطلين أريد للعلماء - والعلماء وحدهم- أن ينسحبوا من حلبة التغيير تاركين إياها لقيصر وحده يفعل ما يشاء!

ومطلوب من هؤلاء العلماء أن يهدروا كل نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يؤولوها، وكذلك آيات الحكم بما أنزل اللَّه والمعاملات والحدود والجهاد وغيرها من التشريعات التي ربما تمثِّل مصدر إزعاج لكل حاكم ظالم.

أريد لهم أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض، وباتوا يعملون في المساحة الآمنة، وذلك لضمان المال والحظوة، ولإثبات حسن النية أيضًا!

وفي هذا المعنى يرى العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ **أن التحدث إلى الناس بالصوم والصلاة فيما دماؤهم تراق خيانة للَّه تعالى.**

ولم يعد هؤلاء الشيوخ يتحركون إلا لنصرة الحاكم، أما فيما يتعلق بنصرة الشرع، فهم يتمتعون ببلادة منقطعة النظير.

ففي الوقت الذي يكون فيه الصراع بين الحق والباطل على أشده تجدهم يرتاحون بالجلوس في بيوتهم، لا يؤنِّبهم الضمير، ولا يحزّ في نفوسهم التخلف عن نصرة الحق، ولا تحركهم الدماء التي تسيل أنهارًا، ليلًا ونهارًا، فإن القوم طلاب سلامة، حسبهم من التدين ما لا يثير المشاكل، وما لا يزعج حكامهم وأولياء نعمتهم، فتخلفوا عن جهاد البيان، وصدق فيهم قول اللَّه: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

كما أنهم أخذوا على عاتقهم أن يأخذوا معهم الجماهير ليُنيموهم

بالفتاوى التي تؤمِّن الظالمين في مخادعهم.

ولم يكتفوا بذلك بل وجب عليهم أن يخرجوا في وجه كل حركة تحررية من قبل الجماهير المظلومة، بفتاوى التجريم والتحريم، بدعوى أن نضال الشعوب من أجل حرياتها فتن ومروق وخروج على الحاكم نُهينا عنه شرعًا!

نعم. خروج فرنسا عشر سنوات من النضال لنيل الحرية ثورة ميمونة، وكذلك كل بلاد الدنيا، أما خروج المسلمين لنيل ما تبقى من حقوقهم فتنة تفضي إلى النار!

السلفية البترولية:

نادى الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب بالعودة إلى ما كان عليه سلف الأمة ونبذ البدع والخرافات والشوائب عن هذا الدين، وحُورب الرجل وحُوربت دعوته، ثم قيَّض اللَّه لها القبول بعد الإنكار، والرفعة بعد الانكسار.

لكنَّ أناسًا أرادوا الدنيا. استخدموا اتباع هذه الدعوة لتحقيق مطامع خاصة من مال أو جاه أو سلطة، فتظاهروا بالانتساب لهذه الدعوة وحمايتها في مقابل أن يقوم العلماء بالاعتراف بهذه الأنظمة وتأنيس الناس بها!

استخدمت هذه الأنظمة هؤلاء العلماء في دائرة **الهدي الظاهري** وبعض مسائل الوضوء والطهارة، ولم ينسوا أن يُحضِروهم في المناسبات الوادعة ككسوة الكعبة، وخطبة الحج الأعظم، والدعاء للحاكم في خطبة الجمعة. إلخ.

لكن إذا كان الأمر يتعلق بمسألة الولاء والبراء، وحرمة التطبيع مع

الصهاينة، ووجوب نصرة قضايا الأمة، وتحريم إنشاء قواعد عسكرية للعدو في بلاد المسلمين، وحرمة الاستعانة بالمشركين، أو حقوق الرعية على الحاكم، وتفعيل الشورى، وحق الشعوب في المعدن والركاز والبترول الذي تستولي عليه الأسر الحاكمة، وتحقيق والعدالة الاجتماعية. إلخ، فلا تسمع لهؤلاء العلماء حسًّا ولا ركزًا!

فيا علماء بلاد الذهب الأسود! يظلمكم كثير من الناس بتسميتكم علماء الحيض والنفاس، ولكنِي لا أشاطرهم الرأي، فكثيرٌ منكم أعلام في مجالات الدين المختلفة من فقه وعقيدة، ولكن هنالك بعض التساؤلات التي لا أجد لها جوابًا ألخصها لكم فيما يلي:

أولًا: متى ستتوقفون عن تحليل الربا واستخدام فقه الضرورة -حيث لا توجد ضرورة- لتحليل كافة المحرَّمات؟

ثانيًا: هل تنامون ملء جفونكم ترفلون في النعيم وأبناء شعوبكم يعانون الذل والمسغبة والهوان والاعتقال في سجون ومعسكرات الموت لأجل أن طالبوا بالحرية وقالوا ربنا اللَّه؟!

ثالثًا: هل أنتم على استعداد لتحمل وزر مقتل ودماء الآلاف من الأبرياء التي استباحها الطغاة متدثرين بفتاواكم؟!

رابعًا: متى سنسمع أنكم تركتم حياتكم المنعمَّة وغبَّرتم أرجلكم ساعةً في سبيل اللَّه، متفقدين ضحايا الظلم والاعتداء على الحرمات والمقدسات على طول وعرض العالم الإسلامي؟!

كل هذه القضايا وأشباهها سكتت السلفية البترولية عن الخوض فيها، أو أُسكتت؛ لأن كثيرًا من علمائها تحولوا إلى أبواق للسلطة يُفهِمون الشعوب

أن حكامهم يحكمون بالشريعة أفضل من عمر بن الخطاب، ويدعون لهم على المنابر، ويصفونهم بإمرة المؤمنين!!

يا عباد القصور.. رفقًا بعباد القبور:

ترى هؤلاء العلماء يُنزِلون اللعنات والويل والثبور بزُوَّار الأضرحة والقبور - ولهم الحق في وجوب محاربة هذه الشركيات والبدع- لكنهم يعمون أو يتعامون عن عُبَّاد القصور من الشيوخ الذين يفعلون من ضروب التأله والتبتل لساكني القصور من الحكام أضعاف ما يفعله الجهال لما يسمونه بالأولياء في القبور، وكلاهما شرك لا محالة، لكنه من العلماء أشنع.

وكل كسوف في الدراري شنيعة لكنه في البدر والشمس أشنع

وصدق ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين عن رب العالمين، فقد قال: «ومن له خبرة بما بعث اللَّه به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه، رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس دينًا، **وأي دين؟ وأي خير؟ فيمن يرى محارم اللَّه تُنتهك، وحدوده تُضاع، ودينه يُترك، وسنة رسوله ﷺ يُرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس،** كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم، فلا مبالاة لهم بما جرى على الدين؟».

ثم قال: «وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله، بذل وتبذل، وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه»[1]

(١) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (٢/ ١٩٨).

فهذا نموذج العالم البارد الذي لا توجعه هموم أمته، أفسدته المكيفات والمرطبات والمرتبات، واكتفى من الدين بالقشريات التي لا تقض للظالمين مضجعًا، ولا تثير عليهم مجمعًا!

فقهاء الهروب:

إن بعض الشيوخ الكبار قرروا العزلة حين يكشر البلاء عن أنيابه بدعوى أن هذا زمان ظهور الفتن -وأيُّ زمان لم تكن فيه فتن؟-، ثم يخرج أحدهم -يوم يخرج- ليعاتب أبناء التيار الإسلامي -وحدهم- الذين لم يقتدوا به فيسكتون مثله!!

لن أقف كثيرًا عند حديثهم عن حرمة الكحل للسيدة في عدة زوجها المتوفى، مع عدم تعرضهم -من قريب أو بعيد- لحرمة فقء عيون المظلومين بالرصاص والخرطوش!!

ولن أقف كثيرًا عند ذكرهم لحرمة وصل شعر الصلعاء حين تصل شعرها يوم عرسها، مع عدم التعرض لتحريم اغتصابهن -الصلعاء منهن والحسناء-!

ربَّى هؤلاء شعوبًا خفيفة شاردة كما قال فيهم معاوية ﵁ «أركب الناس لكبير، وأسأل الناس عن صغير»!

إنه ينبغي للعالم أن يكون إيجابيًا تجاه قضايا أمته، ونصرة المظلومين منها، ولا يكون أقل نخوة ومروءة وثورة لمظلوم من هؤلاء النفر، من كفار مكة الذين حرَّكتهم إنسانيتهم لفك الحصار عن المسلمين في شِعْب أبي طالب!

إن أبا البختري ابن هشام تحدَّى أبا جهل وشجَّ رأسه، وأصرَّ على إدخال طعام جاء به حكيم بن حزام للمحاصَرين من المسلمين في شعب أبي طالب!

إن ابن الدغنة -أحد رجالات النخوة في الجاهلية- والذي حفظ التاريخ اسمه - ولم يكن يأتمر بأمر السماء- كان أنبل منهم حين لقي أبا بكر مهاجرًا، فقال له: «مثلك لا يَخرُج ولا يُخرَج، أنا لك جارٌ، فارجع اعبد ربك ببلادك»(١)

وكيف يرضى العالم لنفسه أن يكون حبيس بيته بعد أن سمع اللَّه -تعالى- يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ألم يسمع قول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يُسلمه ولا يخذله»(٢)

وليس في القرآن آية واحدة تبيح السكوت حين يجب قول الحق، أو خذلان من يطالبون بحقوقهم ورفع الظلم عنهم.

وهل يطلب من الأمة التي تحمل نعوش مظلوميها أن تكون بعدها رقمًا في دولة السكوت؟!

عرفنا من آيات القرآن أن أصحاب الأخدود حُرقوا في الأخاديد، ولم ينزلوا على رغبة أهل الباطل، وأن المؤمنين من سحرة فرعون صلبوا على جذوع النخل وقُطعت أيديهم وأرجلهم ولم يكونوا على الباطل!

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١٠) ومسلم (٢٥٨٠).

كما حدثنا القرآن عن قوم سكتوا في القرآن حيث وجب الكلام، عن أمة من بني إسرائيل سكتوا فقط عن وعظ إخوانهم حين انتهكوا حرمة السبت فأخذهم اللَّه بعذاب بئيس، ومسخَهم قردةً خاسئين.

هل نجد في آيات الذكر الحكيم وسنة المصطفى ﷺ آية أو حديثًا تمدح القاعد مع نسائه حين يُقتل إخوانه ظلمًا؟!

بئس الرجل هو من كان يعرف من الظالم ومن المظلوم، وأشنع منه من يخذَل المظلوم.

فهل يحل بعدها أن لا نعظ قومًا انتهكوا من حرمة الأرواح والمساجد والمصاحف ما لا يُحصى؟

وللأسف وجدنا من العلماء من جاء ينصح المظلومين وهو في حراسة التشكيلات الأمنية التي تقتل إخوانه! لكن ليس كما قال فسَدة بني إسرائيل: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]، بل يقولون: «لم تخرجون على قوم اللَّه ﷺ وأرضاهم؟!».

وجدنا بعضهم اعتزلوا قضايا أمتهم شهورًا عديدة، ثم خرجوا على المكلومين في ثوب الناصحين!

عجبت من هؤلاء الشيوخ الذين يكونون أسودًا في النصيحة مع ولاة الأمر الصالحين -وهذا يُحمَد ولا يُعاب- ثم يتحول الواحد منهم إلى حَمَل وديع بليد الحسّ يبلع لسانه بين يدي جرائم الطاغوت والبهتان؟!

وبعضهم يعتزل وهو متربِّص بالمستضعفين الدوائر، حتى إذا اكتووا بنار الظالمين قالوا: ألم نقل لكم؟

إن هذه الطائفة من العلماء رضيت لنفسها أن ترقب دائمًا الأحداث دون أن تشارك فيها، ولو نجحت ثورة المكلومين المضطهدين فسيكونون من أحبابها وماديحها، وإذا فشلت سيقولون لهم: ألم نقل لكم: إنها فتنة؟!

وهؤلاء شابهوا إمعات العوام الذين يريدون للأحداث أن تهدأ وتنتهي على أي حال؛ حتى يستكملوا رحلتهم في البحث عن لقمة عيش أفضل.. وهم يجدون في لفظ «فتنة» مخرجًا لطيفًا لهم!!

عذرًا أيها الشيوخ: فلن تجادلوا اللّه عنا يوم القيامة، ولو كنتم تفعلونها لعصبنا أعيننا واتبعناكم في عزلتكم، لكن هذا ما حكى القرآن خلافه ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

المتاجرون بأحاديث الفتن:

إن شيوخًا لهم حظ من الشهرة انسلخوا من واجبهم، وسوَّغوا لأنفسهم ولطلبة العلم القعود عن نصرة الحق بدعوى أنها فتنة، وبرد عندهم الإنكار، حتى إنكار القلب، وهو آخر معاقل إنكار المنكر وليس وراءه حبة من خردل من إيمان.

ونؤكد للجميع أنه ليس في أحاديث الفتن دليلٌ على الانسلاخ من المجتمع، والانضمام لقطار السلبيين، وذلك من وجوه:

أولًا: إن أحاديث الفتن -ولا سيما التي لم تقع أحداثها- من الغيب الذي لا يعلمه إلّا اللّه تعالى، وإذا سلّمنا جدلًا بأن بعضها وقع، فلا يجوز لكل أحد القطع بأن ما وقع هو الذي عناه النبيّ ﷺ، ولا يجوز لأحد أن يتكلم في هذه الوقائع ويربطها بأحاديث الفتن غير الراسخين من علماء الأمة؛ فهم

المنوط بهم النظر في النوازل، وآثارها، والتعامل معها فقهًا وواقعًا، وليس هذا لمن ينتزعون الأدلة من بطون الكتب مما وافق هواهم، ولا يملكون من العقل وسداد الرأي، فيضللوا الأمة، مع العلم بأن أكثر أحاديث الفتن غير صحيح، والصحيح منها غير صريح في معناه ودلالته.

إننا نرى تخبطًا كبيرًا في فهم أحاديث الفتن، وتنزيلها على واقع الناس اليوم، مع الجرأة المريبة والسفه العجيب.

وليس من مسالك علماء السلف التعجل في تنزيل أحاديث الفتن على واقع الناس؛ إذ لم يكونوا يقطعون بذلك حتى تتحقق أحداثها في الواقع تحققًا لا مرية فيه.

وقد أخرج بعض العلماء من جعبتهم أحاديث الفتن هذه للناس يوم جاء الصليبيون، ويوم جاء التتار، وكلما مر المسلمون بأزمة تراهم يدبجونها ويقولون للناس: لا فائدة، إن القيامة على الأبواب، ففيم المقاومة؟!

وهذا مخالف لما جاء به الإسلام كحديث: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها؛ فليغرسها»[1]

والعجيب أنه في كل مرة ينتصر الإسلام ويخرج من المحنة أقوى مما كان!

ثانيًا: والفتن على نوعين:

الأول: الابتلاءات القدرية التي يُخشى منها الهلكة، كعلامات الساعة

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩) وصححه الشيخ الألباني في «الأدب المفرد» (٤٧٩)، وفي «السلسلة الصحيحة» (٩)

والخسف والمسخ، ويأجوج ومأجوج، وما شابه، وهذه فتن قدَرية لا يمكن لأحد دفعُها.

الثاني: الفتن المحيِّرة، وهي التي يصعب معها تمييز الحق من الباطل، أما إذا تبين الحق من الباطل فلا فتنة.

وهذه كالخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فالأول يطلب بيعة شرعية، والآخر يطلب ثأر عثمان وهو أمر شرعي أيضًا، وتطبيق لحد من حدود اللّه تعالى، وكان الخلاف بينهما رضي الله عنهما في: أيهما يُقدم: البيعة أم الثأر؟ وكلا الأمرين له وجهة شرعية، لكن أحدهما أوجه من الآخر، وقد تنبأ الرسول بهذا الخلاف، فقال فيهما: «تمرق مارقة على حين فُرقة من المسلمين تقاتلها أدنى الطائفتين إلى الحق»(١)

فالاختيار هنا بين حق وأحق، فالأمر مختلط والفارق يسير.

ثالثًا: الفتن التي أمرنا بالقعود فيها والعزلة هي التي لا يستبين فيها الخير من الشر، وهذا ما يفهمه حذيفة -الراوي المتخصص في أحاديث الفتن- إذ يقول: «إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل، فلم تدرِ أيهما تتبع فتلك الفتنة»(٢)

ومن استبان له الخير من الشر وسار فيما استبان له فهو مأجور بنيته، أما الأمر بالقعود فهو خاص بمن لم يستبن له الخير من الشر، ويحمل على هذا حديث: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، باب من كره الخروج في الفتنة وتعوذ منها (٧/ ٤٦٨).

الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[١]

وقد استبان لبعض الصحابة صحة موقف الإمام عليّ فناصروه، واستبان لبعضهم صحة موقف معاوية فناصروه، ومَن لم يترجح عنده موقف هذا ولا ذاك توقف وعمل بمقتضى الحديث.

أما اليوم فالأمر واضحٌ غاية الوضوح، فالمفاصلة بين جبهتين: جبهة تستوجب النصرة، وفيها من الأطهار الأبرار المنادين بتطبيق الشريعة، ومعهم كل الشرفاء في الأمة.

والجبهة الأخرى: فيها أهل الباطل، والمنابذون لحكم الشريعة، ومن لف لفيفهم من النصارى والعلمانيين والإباحيين وأصحاب المصالح.

ونقول لهؤلاء: أولى بهذا الأمر أن يدرج في مسائل الولاء والبراء بدلًا من أن تلبسوا على الناس وتقولوا: هي فتنة فاعتزلوها.

رابعًا: الأحاديث ترد عليهم، فهي ليست مطلقة في اعتزال الفتن؛ ففي الصحيحين: «سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، **وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**»[٢]

وهذا فيما إذا لم يستبن الحق من الباطل، أو كان لأجل الدنيا، أما إذا كان نصرة للدين والحق فلا يُسمَّى فتنة، والقاعد عندئذ يكون قد خان واجبًا شرعيًا.

---

(١) جزء من حديث متفق عليه أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٦)، ومسلم (٢٨٨٦).

وفي آخر الحديث: «**من وجد ملجأ أو معاذًا فليعذ به**»، والمعاذ يكون بلزوم الجماعة، وهي الجبهة التي فيها الإمام المبايَع والعلماء الربانيون، وإلا، فمن تكون إذن؟!

ويؤكد هذا ما جاء في الصحيحين عن حذيفة: « تكون دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، هم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا، **فالزم جماعة المسلمين وإمامهم**، فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام، فاعتزل تلك الفِرَق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت كذلك»[(١)]

إذن: الجماعة التي نواليها هي التي فيها الإمام المبايَع والعلماء الثابتون على الحق.

ومعلوم أن الظلمة والفجرة ليست لهم بيعة في أعناق الأمة، بل هم لصوص غاصبون، ولزوم جبهتهم يعني تكثير سوادهم، وهذا عين المضادة لما جاء به الشرع، فإذا وُجد من بايعته الأمة واختارته كانت جبهته هي المخرج من الفتن، وفي هذا دليل صريح على أن المخرج من الفتن يتمثل في اعتزال هذه الفرق ولزوم الجماعة والتي فيها الإمام الشرعي ومناصرته؛ لأن الرسول ﷺ أمرنا بذلك صراحة.

خامسًا: ذكرت الأحاديث أنه رغم هذه الفتن، فإن هناك طائفة ثابتة على الحق، وهي منصورة بإذن اللّه تعالى؛ لأنه لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجة، فقال رسول اللّه ﷺ: «**لا يَزَالُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى**

---

(١) جزء من حديث متفق عليه أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (١٨٤٧).

يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[١]

ويدلنا على ذلك أن نعيم بن حماد أخرج هذا الحديث -حديث الطائفة المنصورة- في أحاديث الفتن[٢]، وحسبك من هذا فقهًا في الدين.

فلماذا لا نحاول أن نكون من هذه الطائفة؟

إن إنكار المنكر فرصتنا الوحيدة للنجاة من الفتن؛ لأن قلب المؤمن الصادق يقوى بمواجهة الفتن، فيكون كالصخرة التي تتحطم عليها الأمواج لحديث: **«تُعرَض الفتن على القلوب، فأيّ قلب أنكرها، نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير أبيض مثل الصفاة، لا تضره فتنة، وأي قلب أشربها، نكتت فيه نكتة سوداء، حتى يصير أسود كالكوز منكوسًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا»**[٣]

سادسًا: التعلل بالفتن مطية للّهروب من المسئولية، وإلا، فأين الآيات المطالبة بتبليغ الدعوة والصدع بالحق؟ وأين أحاديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وأين الحسبة في المجتمع؟

ألم تكن هذه الأحاديث في اعتبار علماء الأمة وهم يقوِّمون مسار المنحرفين عبر التاريخ؟ وهل غابت هذه الأحاديث عن الإمام أحمد والأوزاعي، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية، وغيرهم ممن هم أولى بالاتباع من علماء السلطان في زماننا وفي كل زمان؟!

بل دعوني أنقل لكم كلامًا نفيسًا للإمام الطبري رحمه الله، وهو من كبار

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢١).

(٢) (١/ ٢٣٤)، رقم (٦٥٧).

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٦٠٦).

علماء السلف، وهو غنيٌّ عن التعريف، فقد كان أمةً وحده رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول الطبري: «**لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل وكسر السيوف، لما أُقيم حدٌّ، ولا أُبطل باطل، ولوجد أهل الفسوق سبيلًا إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال، وسفك الدماء، وسبي الحريم بأن يحاربوهم، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا: هذه فتنة، وقد نُهينا عن القتال فيها، وهذا مخالِف للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء**»[1]

سابعًا: كيف يقال للإسلاميين وحدهم: اتركوا المشهد بدعوى أن هذه فتنة ويفسح الميدان للعلمانيين والكارهين للحكم بما أنزل اللَّه؟!

إن النصارى الذين لا دخل لهم بقيصر وما لقيصر، تربعوا على منصة التغيير، ولهم صوت مسموع وموقف حاضر، فكيف يقال لنا وحدنا: انضموا لذيل القطيع؛ لأن الخوض في هذه الأحداث فتنة؟!

لا شك أن هذه الفتاوى -سيئة السمعة- تخدم أعداء الشريعة، وصدورها في هذا التوقيت تكريس لفكرة الفصل بين الدين والدولة، والتي يسعى العدو لفرضها بالقوة أو بالفتوى!

رواة لا علماء:

كثيرٌ هم الذين ينتسبون للعلم ولا ينطبق عليهم وصفه؛ لأن السلف لم يكونوا يعتبرون جامع الروايات عالمًا حتى يكون له بصيرة بما يَحمل مِن فقه وشريعة، قال إبراهيم الخواص: «ليس العالم بكثرة الرواية، وإنما العالِم

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٣١٧).

مَن اتبع العلم واستعمله، واقتدى بالسنن، وإن كان قليل العلم»[١]

وقال الشعبي -في تواضع-: «إنَّا لسنا بالفقهاء، ولكنا سمعنا الحديث فرويناه. لكنّ الفقهاء مَن إذا علم عمل»[٢]

وقال ابن القيم في قوله ﷺ: «من يرد اللّه به خيرًا يفقهه في الدين»[٣]: إذا أريد بالفقه العلمُ المستلزِم للعمل، وأما إن أُريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فُقِّهَ في الدين فقد أريد به خيرًا»[٤]

وقال الشاطبي: «علماء السوء هم الذين لا يعملون بما يعلمون، وإذا لم يكونوا كذلك، فليسوا في الحقيقة من الراسخين في العلم، وإنما هم رواة -والفقه فيما رووا أمر آخر- أو ممن غلب عليهم هوى غطّى على القلوب، والعياذ باللّه»[٥]

فما كانوا يعرفون العالم بالمُطَّلِع أو الباحث أو الراوي، بل بالعامل المقبل على اللّه، المنصرف عما سواه، ومن أقوالهم في ذلك: «إنما العالم من خاف اللّه عز وجل»[٦]، و«إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا[٧] الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربه»[٨]،

---

(١) الاعتصام (١/ ١٦٢).

(٢) تذكرة الحفاظ (١/ ٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠).

(٥) الموافقات (١/ ١٠٣).

(٦) انظر الجامع لابن عبد البر (١/ ١٣٤).

(٧) قال الشبلي: كل علم لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم. قواعد التصوف (ص ٤٩) زهران.

(٨) أخرجه الدارمي (٢٩٤) عن الحسن البصري.

و«إنما الفقيه من يخاف الله»[1]

وسئل سعد بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ فقال: «أتقاهم لربه»[2]

* * * * *

(١) انظر الجامع لابن عبد البر (١/ ١٣٤).

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٥) من كلام سعد بن إبراهيم الزهري.

الفصل الرابع
علماء السلاطين

الفصل الرابع
علماء السلاطين

كثُر في هذا الزمان صنفٌ من العلماء يخطبون ودّ السلطان فيفتون حسب هواه، وبعضهم يتبرع بذلك، فيحرمون ما يأباه، ويبيحون ما يهواه، بحجج واهية مثل دفع الضرر أو المصلحة أو متغيرات الزمن. . إلخ، فينتقون من الآيات والأحاديث ما يتناسب مع أمزجة سلاطينهم، متغاضين عن بقية الأدلة التي تخالف وجهته.

ووصف علماء السلاطين يُطلَق على مجموعة الأشخاص الذين لديهم قدرٌ من العلم الشرعي، ولكنهم يستعملونه لخدمة مصالح أمير، أو قائد، أو زعيم أو سلطان معين، أو حتى رجل أعمال مرموق، أو امرأة مومس، وإن كان هذا لا يتماشى مع ثوابت الدين وأصوله الشرعية، فيقومون بليّ أعناق النصوص لتناسب مصالح حكامهم ومن فوقهم، ويُطلق عليهم أيضًا: «شيوخ السلاطين»، و«شعراء البلاط»، أو «شيوخ البلاط».

فعلماء السلطان هم الذين يُلبِّسون على الأمة من أجل دراهم السلاطين والملوك وعطاياهم على حساب الدين ومصلحة الشعوب، وهذا ما دعا الفيلسوف الروسي لأن يقول: «الدين أفيون الشعب».

فأينما سرح السلطان فإن هؤلاء يسرحون، وأينما مال يميلون، وحيثما شطح ذو القوة والجاه يشطحون، وحيثما هام الاستبداد والظلم يهيمون.

فالدين عنهم كما قال القائل ساخرًا:

الدين ما يراه حاكم البلد ... وقوله المفتَى به والمعتمد
ما الدين في الإحراج للحكام ... ليطلبوا الحل من الإسلام
أنجعل القرآن كالتوراة ... ليغدو الدستور للحياة؟!
الدين أن تبدو ظريفًا مرنًا ... وإن عبدت عنزة ووثنا
دعك من الجمود والتعصب ... وإن جحدت بالكتاب والنبي[1]

وفي كل زمان ظل علماء السلاطين يتملقون ويتزلفون، ويداهنون أصحاب النفوذ والقوة والسلاطين، فيلمّعون الوجوه، ويجمّلون العبث، ويدارون الفسق، ويسوّقون للفاحشة عن طريق قلب الحقائق والتلاعب بالدلالات الشرعية والآيات والتفاسير.

يظهر هذا بالتزامن مع اختفاء أكثر علماء الحق الفاضلين الصادقين في هذا الزمان، وبروز دور قوي لأتباع الهوى من علماء السلاطين وأبواق الشياطين، والذين نذروا أنفسهم لتمرير الفسق وخدمة الإجرام وتبرير الطغيان والجبروت والسلطان..

ولتحقيق هذه الأهداف، فقد اختلق هؤلاء العلماء المسوِّغات الشرعية المشوشة والمشبوهة، محاولين بذلك **تجميل وجه الباطل، وتمرير الظلم، وتبرير القتل والبطش والفسق والطيش**، وأصدروا لذلك الفتاوى

(١) أرجوزة للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي بعنوان الأصوليون والوصوليون، يسخر فيها من علماء الفتنة. على الرابط التالي:
http//:forum.islamstory.com/40503-post1.html

المضللة طمعًا في تحصيل رضا السلطان والفوز ببعض من عطاياه!!

إن الخليفة أبا بكر الصديق ﷺ كان يوصي الجيش الإسلامي المنطلق لجهاد المشركين والكفار والمرتدين بأن لا يقتلوا شيخًا كبيرًا ولا امرأةً أو طفلًا، وبأن لا يقطعوا شجرةً، وبأن لا ينحروا شاةً إلا لمأكلة.

بينما وجدنا علماء السلاطين في هذا الزمان يشجِّعون على قتل المسلمين الموحدين والصائمين، والراكعين والساجدين، وعلى حرق وقتل المعارضين المسالمين -قاتلهم الله-؛ فكانوا مطية للشياطين، وأداة رخيصة في يد الظالمين القاتلين..

تبًّا لهم بعدما استهانوا بشرع الله، واستخفُّوا بحدوده، وتاجَروا بشريعته ودينه، ثم حرَّفوا كلامه، وضللوا عباده، وحاربوا الفضيلة، ومهَّدوا للظلم والفحشاء والرذيلة..

اقتل أيها السلطان ولا تسأل!! إن أعداءك هم شرذمة قليلون!! اضرب أيها السلطان، فإن هؤلاء هم بعض الخوارج!! اقتل أيها السلطان، وامض بقوة الله؛ فإنك على الحق المبين!! اضرب فأنت سيف الله المسلول في وجه العملاء والإرهابيين!!

هذه بعض الأقوال والفتاوى المنسوبة لعلماء السلاطين في هذه الأيام، والمشاهد السورية والعراقية، والمصرية والليبية، حاضرة بقوة أمامنا في هذه الأيام..

عبر تاريخ الإسلام كان هؤلاء -ولم يزالوا- مجرد أبواق للشياطين وأحذية السلاطين، تستبدل بين الفينة والفينة، وهم ليسوا عند الله سوى مثال صارخ على الجبن والنفاق والشرك، بعد أن خنعوا أمام القوة،

واستكانوا أمام الظلم والجبروت، وبعد جعلهم الدين وسيلة للكسب ولبلوغ النزوات، وتحقيق الشهوات باستجداء الثَّرِيّ، وبمداراة الظالم، وبمداهنة القَوِيّ.

فعن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول ﷺ: «يكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع فأبعده اللَّه»[(١)]

نصوص تحذر من الدخول على السلطان:

وروى الحاكم في تاريخه عن معاذ: «ما من عالم أتى صاحب سلطان طوعًا إلا كان شريكه في كل لون يُعذَّب به في نار جهنم»[(٢)]

وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده، والحاكم في تاريخه، وأبو نعيم، والعقيلي، والديلمي، والرافعي في تاريخه، عن أنس بن مالك، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ «العلماء أمناء الرسل على عباد اللَّه ما لم يخالطوا السلطان، فإذا خالطوا السلطان، فقد خانوا الرسل فاحذروهم، واعتزلوهم».

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن»[(٣)]

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٤).

(٢) حديث ضعيف. أخرجه الحاكم في تاريخه، انظر: تذكرة الموضوعات (٢٥)، وكشف الخفاء (٢/ ٢٧١)، ضعيف الجامع (٥١٩٦)، والمقاصد الحسنة (٩٨٣)، وتمييز الطيب (١٢١٦) وقال: رواه الديلمي عن معاذ بن جبل به مرفوعًا، ولا يصح.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٥٩) وغيره.

وعن أبي الأعور السلمي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إياكم وأبواب السلطان، فإنه أصبح صعبًا هبوطًا»[(١)]

وقد جمع الإمام السيوطي في ذلك رسالة شائقة بعنوان (ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين)، لا بأس أن نُورد في هذا المقام بعض ما جاء فيها بتصرف واختصار كبيرين، وهي حافلة بروايات في تحذير العلماء من الدخول على السلاطين، وإن كان في بعض أسانيدها كلام إلا أنها يقوّي بعضها بعضًا ويتقوى الضعيف منها بالصحيح، والأمر في الترغيب والترهيب يحتمل ذلك، ومن هذه الروايات:

أخرج أحمد في مسنده، والبيهقي بسند صحيح، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من السلطان قربًا، إلا ازداد من اللَّه بعدًا».

«إن أبغض الخلق إلى اللَّه -تعالى- العالم يزور العمال»، والعمال: الولاة وأصحاب السلطان والنفوذ.

ولفظ أبي الفتيان: «إن أهون الخلق على اللَّه: العالم يزور العمال».

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة، فاعلم أنه لص».

---

(١) السلسلة الصحيحة (١٢٥٣) (هبوطًا = ذلًا).

وأخرج ابن ماجه بسند رواته ثقات، عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أناسًا من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرءون القرآن، ويقولون نأتي الأمراء، فنصيب من دنياهم، ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك، كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا».

وأخرج الترمذي وصححه، والنسائي، والحاكم وصححه، قال رسول اللَّه ﷺ: «سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولست منه، وليس بوارد عليَّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يعنهم على ظلمهم، ولم يصدقهم بكذبهم، فهو مني، وأنا منه، وهو وارد عليَّ الحوض».

وأخرج أبو الشيخ في الثواب عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين، ثم أتى باب السلطان، تَمَلُّقًا إليه، وطمعًا لما في يده، خاض بقدر خطاه في نار جهنم».

وأخرج الديلمي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يكون في آخر الزمان علماء يرغِّبون الناس في الآخرة ولا يرغبون، ويزهِّدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، وينهون عن غشيان الأمراء ولا ينتهون».

وأخرج الديلمي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه يحب الأمراء إذا خالطوا العلماء، ويمقت العلماء إذا خالطوا الأمراء» لأن العلماء إذا خالطوا الأمراء رغبوا في الدنيا، والأمراء إذا خالطوا العلماء رغبوا في الآخرة».

وأخرج أبو عمرو الداني في كتاب الفتن عن الحسن، قال: قال

رسول اللَّه ﷺ: «لا تزال هذه الأمة تحت يد اللَّه وكنفه، ما لم يمارِ قراؤُها أمراءَها».

وأخرج الحاكم، وصححه، عن عبد اللَّه بن الشخير رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أقلوا الدخول على الأغنياء، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة اللَّه».

وأخرج الحاكم، عن عبد اللَّه بن الحارث رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «سيكون بعدي سلاطين، الفتنُ على أبوابهم كمبارك الإبل، لا يعطون أحدًا شيئًا، إلا أخذوا من دينه مثله».

وأخرج الديلمي، عن أبي الأعور السلمي -رضي اللَّه تعالى عنه- قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إياكم وأبواب السلطان»!!

وأخرج الديلمي، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من مشى إلى سلطان جائر طوعًا، من ذات نفسه، تملقًا إليه بلقائه، والسلام عليه، خاض نار جهنم بقدر خطاه، إلى أن يرجع من عنده إلى منزله، فإن مال إلى هواه، أو شد على عضده -أي: دعمه في الباطل- لم يحلل به -أي: السلطان- من اللَّه لعنة، إلا كان عليه -أي: العالم- مثلها، ولم يعذب في النار بنوع من العذاب، إلا عذب بمثله».

وأخرج الحاكم في تاريخه عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من قرأ القرآن وتفقه في الدين، ثم أتى صاحب سلطان طمعًا لما في يديه خاض بقدر خطاه في نار جهنم»، أي: يكون شريكًا له في كل مآثمه.

وأخرج الديلمي، عن علي، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إياكم ومجالسة السلطان، فإنه ذهابُ الدين، وإياكم ومعونته فإنكم لا تحمدون أمره».

وأخرج ابن أبي شيبة، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون أمراء تعرفون وتنكرون، فمن ناوأهم نجا، ومن اعتزلهم سلم، أو كاد، ومن خالطهم هلك».

وأخرج البيهقي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «اتقوا أبواب السلطان».

وفي الفردوس من حديث علي رضي الله عنه مرفوعًا: «أفضل التابعين من أمتي من لا يقرب أبواب السلاطين».

وأخرج الدارمي في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من أراد أن يكرم دينه، فلا يدخل على السلطان، ولا يَخلُونَّ بالنسوان ولا يخاصمن أصحاب الأهواء».

وأخرج البخاري في تاريخه، وابن سعد في الطبقات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يدخل الرجل على السلطان ومعه دينه، فيخرج وما معه شيء».

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن سلمة بن نبيط قال: قلت لأبي -وكان قد شهد النبي ﷺ ورآه وسمع منه-: «يا أبتِ لو أتيت هذا السلطان، فأصبتِ منهم وأصاب قومك في جناحك؟ قال: أيْ بني! إني أخاف أن أجلس منهم مجلسًا يدخلني النار».

وأخرج الدارمي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من طلب العلم لأربع دخل النار: ليباهي به العلماء، ويماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، أو يأخذ به من الأمراء».

وأخرج ابن ماجه، والبيهقي، عن ابن مسعود، قال: «لو أن أهل العلم

صانوا العلم، ووضعوه عند أهله، لسادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم، فهانوا عليهم».

وأخرج ابن أبي شيبة، عن حذيفة بن اليمان -رضي الله تعالى عنه- قال: «ألا لا يمشين رجل منكم شبرًا إلى ذي سلطان».

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو نعيم في الحلية، عن حذيفة رضي الله عنه قال: «إياكم ومواقف الفتن! قيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمير؛ يدخل الرجل على الأمير، فيصدِّقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه».

وأخرج ابن عساكر، عن أبي أمامة الباهلي، قال: قال النبي ﷺ: «أبعد الخلق من الله، رجلٌ يجالس الأمراء، فما قالوا من جوْر صدقهم عليه».

وقال إسحاق: «ما أسمج بالعالم يؤتى مجلسه ولا يوجد فيسأل عنه، فيقال: إنه عند الأمير! وكنت أسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالم يزور السلطان فاتهموه على دينكم».

وقال وهب: «هؤلاء الذين يدخلون على الملوك، لَهُم أضرُّ على الأمة من المقامرين».

وقال محمد بن مسلمة: «الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء».

وحين خالط الزهري بعض أمراء بني أمية كتب له أخ في الدين: «عافانا الله وإياك يا أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن يعرفك أن يدعو لك ويرحمك، أصبحت شيخًا كبيرًا وقد أثقلتك نعم الله لما فهَّمك من كتابه وعلَّمك من سنة نبيه ﷺ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت،

أنك آنست وحشة الظالم، وسهَّلت سبيل الغي، بدُنُوِّك ممن لم يؤد حقًّا، ولم يترك باطلًا حين أدناك، اتخذك قطبًا تدور عليك رحايا ظلمهم، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسُلمًا يصعدون فيه إلى ضلالتهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويغتالون بك قلوب الجهال، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما أخربوا عليك! وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك! فما يؤمنك أن تكون ممن قال اللَّه فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾، وإنك تعامل مَن لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداوِ دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضرك سفر بعيد، وما يخفى على اللَّه شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام».

قلت: فماذا لو كانت المخالطة لمثل أمراء زماننا؟!

تلبيس إبليس على العلماء في الدخول على السلاطين:

قال ابن الجوزي في كتابه: «تلبيس إبليس»: «. ومن تلبيس إبليس على الفقهاء مخالطتهم الأمراء والسلاطين، ومداهنتهم، وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك، وربما رخَّصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه؛ لينالوا من دنياهم عرَضًا، فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه:

الأول: الأمير يقول: لولا أني على صواب لأنكر عليَّ الفقيه، وكيف لا أكون مصيبًا وهو يأكل من مالي؟!

والثاني: العامي يقول: لا بأس بهذا الأمير، ولا بماله ولا بأفعاله، فإن فلانًا الفقيه لا يبرح عنده.

والثالث: الفقيه، فإنه يفسد دينه بذلك.

وقد لبَّس إبليس عليهم في الدخول على السلطان، فيقول: إنما ندخل

لنشفع في مسلم، وينكشف هذا التلبيس بأنه لو دخل غيره يشفع لما أعجبه ذلك، وربما قدح في ذلك الشخص لتفرده بالسلطان!!

ومن تلبيس إبليس عليه في أخذ أموالهم فيقول: لك فيها حق، ومعلوم أنها إن كانت من حرام لم يحل له منها شيء، وإن كانت من شبهة فتركها أولى، وإن كانت من مباح جاز له الأخذ بمقدار مكانه من الدين، لا على وجه اتفاقه في إقامة الرعونة -يقصد أنه نالها بموافقته هوى السلطان-، وربما اقتدى العوام بظاهر فعله، واستباحوا ما لا يستباح..

وفي الجملة: فالدخول على السلاطين خطرٌ عظيمٌ؛ لأن النية قد تحسن في أول الدخول ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم أو بالطمع فيهم، ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الإنكار عليهم.

وقد كان علماء السلف يبعدون عن الأمراء لما يظهر من جَوْرهم، فتطلبهم الأمراء لحاجتهم إليهم في الفتاوى والولايات، فنشأ أقوام قويت رغبتهم في الدنيا فتعلموا العلوم التي تصلح للأمراء وحملوها إليهم لينالوا من دنياهم»[١]

والأصل أن هذه النصوص وأشباهها جاريةٌ على إطلاقها في المنع، والاستثناء هو إباحة دخول العلماء على السلاطين في ظروف ضيقة جدًّا، ومنها: **كلمة حق عند سلطان جائر.**

قال السيوطي: ذهب جمهور العلماء من السلف، وصلحاء الخَلَف إلى أن هذه الأحاديث والآثار جارية على إطلاقها، سواء دعوه إلى المجيء

---

(١) تلبيس إبليس، (ص ١٢١، ١٢٢).

إليهم أم لا، وسواء دعوه لمصلحة دينية أم لغيرها.

قال سفيان الثوري: «إن دعوك لتقرأ عليهم: قل هو اللَّه أحد، فلا تأتهم» رواه البيهقي.

وروى الخطيبُ البغدادي عن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «أدركت بضعة عشر رجلًا من التابعين يقولون: لا تأتوهم، ولا تأمروهم، يعني: السلطان».

وكتب أيضًا إلى عباد بن عباد قائلًا: «وإياك والأمراء! أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك أن تُخدع ويقال لك: لتشفع وتدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فجار القراء سُلمًا»[١]

وكان يقول أيضًا: «من دق لهم دواة أو برَى لهم قلمًا، فهو شريكهم في كل دم كان في المشرق والمغرب».

قلت: رحمك اللَّه يا سفيان، فكيف لو سمعت فتاواهم اليوم بجواز جلب جيوش الكفار لبلاد المسلمين، ومناصرتهم على أهل الملة. أو سمعت بمن يشرعن لهم القتل، ويفتيهم بمنع نصرة أهل غزة، ويتبرأ منهم، ويوالي اليهود على حسابهم. حسبنا اللَّه ونعم الوكيل.

وقال سفيان الثوري: «إن فجار القراء اتخذوا سلّمًا إلى الدنيا، فقالوا: ندخل على الأمراء نفرّج عن مكروب ونكلم في محبوس.

وقال ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يُعصى اللَّه في أرضه».

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٧٩) وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٨٦).

وفي خبر آخر: «من أكرم فاسقًا فقد أعان على هدم الإسلام».

وقد سُئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية: هل يُسقى شربة ماء؟ فقال: لا دعه يموت فإن ذلك إعانة له[١]

ولقد أدرك السلف الأول خطورة هذه الفتنة التي تداهم قلب العبد فتجعله منكوسًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فنهوا عن الدخول على الملوك والسلاطين.

قال الحافظ ابن رجب في «شرح حديث ما ذئبان جائعان»: «وقد كان السلف ينهون عن الدخول على الملوك لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضًا.

وممن نهى عن ذلك عمر بن عبد العزيز، وابن المبارك، والثوري، وغيرهم.

وقال ابن المبارك: ليس الآمر الناهي عندنا من دخل عليهم، فأمرهم ونهاهم، إنما الآمر الناهي من اعتزلهم.

وسبب هذا ما يُخشى من فتنة الدخول عليهم، فإن النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيدًا أنه يأمرهم وينهاهم، ويغلظ عليهم، فإذا شاهدهم قريبًا مالت نفسه إليهم وأحبهم، ولاسيما إن لاطفوه وقبل ذلك منهم». انتهى كلامه رحمه الله[٢]

---

(١) للمزيد راجع رسالة السيوطي كاملة في ما رواه الأساطين، وقد نقلنا أجزاء منها بغرض الاختصار.

(٢) جامع العلوم والحكم، (ص٥٣).

وليعلم الموفَّق: أن ذلك كله في أمراء الجور والظلمة.

قال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» خاتمًا الباب الذي ذكر فيه ذم السلف للدخول على الأمراء والسلاطين: «معنى هذا الباب كله في السلطان الجائر، فأما العدل منهم الفاضل، فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر، ألم تر أن عمر بن عبد العزيز إنما كان بصحبة جلة العلماء مثل عروة بن الزبير وابن شهاب وطبقته».

وقد كان ابن شهاب يدخل إلى السلطان عبد الملك وبنيه بعده، وكان ممن يدخل على السلطان: الشعبي وقبيصة بن ذؤيب، ورجاء بن حيوة، وأبو المقدام - وكان عالمًا فاضلًا - والحسن، وأبو الزناد، ومالك بن أنس، والأوزاعي والشافعي، وجماعة يطول ذكرهم.

وإذا حضر العالم عند السلطان غبًّا فيما فيه الحاجة، وقال خيرًا، ونطق بالعلم كان حسنًا، وكان في رضوان اللَّه إلى يوم يلقاه، ولكنها مجالس الفتنة أغلب، والسلامة منها ترك ما فيها». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

وصدق من قال:

إن الملوك بلاء حيث ما حلَوا ... فلا يكن لك في أكنافهم ظلُ

ماذا تؤمل من قومٍ إذا غضبوا ... كادوا عليك وإن أرضيتهم ملُوا

فإن مدحتهم خالوك تخدعهم ... واستثقلوك كما يستثقل الكلُ

فاستغن باللَّه عن أبوابهم أبدًا ... إن الوقوف على أبوابهم ذل

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٨٥-١٨٦).

والخلاصة:

إن الداخل على السلاطين لا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، فإنه ينظر إلى توسعه في النعمة، ويزدري نعمة اللّه عليه، ويكون مقتحمًا، وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره في الدخول، ومن تكثير سواد الظلمة بنفسه، وتجميله إياهم، فضلًا عن الدعاء لهم.

قال السيوطي: وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات، فلا يجوز الدخول عليهم إلا بعذرين.

أحدهما: أن يكون من جهتهم أمر إلزام، لا إكرام، وعلم أنه لو امتنع أوذي، إلا أن يؤدي دخوله إلى فتنة في الدين له وللناس أكبر من فتنة إيذائه في نفسه، كأن يكتسب الحاكم الظالم بدخوله مشروعية.

والثاني: أن يدخل عليهم في دفع الظلم عن مسلم، أو تقليل ضرر واقع بالفعل؛ فذلك رخصة بشرط أن لا يَكذب، ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولًا[١].

فالدخول عليهم إن كان تحركًا ذاتيًا من العالم لتصحيح أوضاع سيئة، وبذل نصيحة، وكان من حاذق مسموع الكلمة كالعز بن عبد السلام والنووي وابن تيمية.. جاز، وعليه أن يحذر العالم من الأمراء الذين يكسبون مشروعية بدخول العلماء عليهم من حيث لا يشعر، وليستحضر فقه الموازنات في هذا الأمر فإنه دقيق جدًا، كما عليه أن يراقب حظوظ النفس، كما قال سفيان الثوري ﷺ يقول: «ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم».

---

(١) ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين - السيوطي - بتصرف واختصار.

أهانوا العلم فأهانهم الحكام:

إن صاحب العلم الذي استخدمه السلطان لخدمته، قطع علاقته بالعلم يوم أن قبل أن يكون مطية تعبر عليها مفاسد من انتدبه، فهو موظَّف عند مَن يعطيه الأجر، وولاؤه لمن اختاره من بين آخرين ليكون غطاء لخطاياه.

فعن أحمد بن أبي الحواري قال: قلت لأبي سليمان تخالف العلماء؟ فغضب وقال: «أرأيت عالمًا يأتي باب السلطان فيأخذ دراهمهم».

يقصد: أن العلماء الذين تتحدث عنهم موظفون عند السلطان، فليسوا بعلماء يُعتد بفتاواهم؛ لأنهم صاروا مجروحين.

وقال أحمد بن الصلت: جاء رجل إلى بشر بن الحارث، فقال له: يا سيدي! السلطان يطلب الصالحين، فترى لي أن أختبئ؟ فقال له بشر: جز من بين يدي، لا يجوز حمار الشوك فيطرحك علينا.

وأخرج ابن باكويه، عن الفضيل بن عياض، قال: لو أن أهل العلم أكرموا على أنفسهم وشحوا على دينهم، وأعزوا العلم وصانوه، وأنزلوه حيث أنزله الله، لخضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقاد لهم الناس، واشتغلوا بما يعنيهم، وعز الإسلام وأهله، لكنهم استذلوا أنفسهم ولم يبالوا بما نقص من دينهم، إذا سلمت لهم دنياهم، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا ما في أيديهم، فذلوا وهانوا على الناس.

وقال نعيم بن الهيصم في جزئه المشهور: أخبرنا خلف بن تميم عن أبي همام الكلاعي، عن الحسن أنه مر ببعض القراء على بعض أبواب السلاطين، فقال: **«أقرحتم جباهكم، وفرطحتم نعالكم، وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم؟! أما إنكم، لو جلستم في بيوتكم لكان خيرًا لكم، تفرقوا فرّق الله بين أعضائكم»**.

وقال الزجاجي في أماليه: أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسن، أخبرني عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، عن عمه قال: مر الحسن البصري بباب عمر بن هبيرة، وعليه القراء فسلم، ثم قال: «ما لكم جلوسًا قد أحفيتم شواربكم وحلقتم رءوسكم، وقصرتم أكمامكم، وفلطحتم نعالكم؟! أما واللَّه! لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم، انصرفوا فضحتم القراء فضحكم اللَّه».

وأخرج ابن عساكر، عن عبد الجبار بن عبد العزيز أبي حازم عن أبيه، عن جده: أن سليمان بن عبد الملك دخل المدينة، فأقام بها ثلاثًا. فقال: هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب محمد ﷺ ويحدثنا؟

فقيل له: بلى هاهنا رجل يقال له أبو حازم، فبعث إليه، فجاءه، فقال له سليمان: يا أبا حازم! ما هذا الجفاء؟ أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني!

قال أبو حازم: إن الناس لما كانوا على الصواب، كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها من الأمراء، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا العلم، وأتوا به إلى الأمراء، فاستغنت به عن العلماء، واجتمع القوم على المعصية فسقطوا أو تعسوا أو تنسكوا، ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم، لم تزل الأمراء تهابهم.

وقال عمن غشوا الأمراء: ليسوا علماء **إنما هم رواة.**

وأخرج أبو نعيم، وابن عساكر، عن يوسف بن أسباط قال: أخبرنا نجم: أن بعض الأمراء أرسل إلى أبي حازم فأتاه، وعنده الإفريقي، والزهري وغيرهما فقال له: تكلم يا أبا حازم فقال أبو حازم: إن خير الأمراء من أحب العلماء، وإن شر العلماء من أحب الأمراء، وكانوا فيما

مضى إذا بعث الأمراء إلى العلماء لم يأتوهم، وإذا سألوهم لم يرخِّصوا لهم، وكان الأمراء يأتون العلماء في بيوتهم فيسألونهم، وكان في ذلك صلاحٌ للأمراء وصلاحٌ للعلماء، فلما رأى ذلك ناس من الناس، قالوا: ما لنا لا نطلب العلم حتى نكون مثل هؤلاء! وطلبوا العلم فأتوا الأمراء فحدثوهم فرخَّصوا لهم فخرَّبت العلماء على الأمراء، وخرَّبت الأمراء على العلماء.

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن سفيان الثوري قال: ما زال العلم عزيزًا، حتى حُمل إلى أبواب الملوك فأخذوا عليه أجرًا، فنزع اللَّه الحلاوة من قلوبهم ومنعهم العمل به.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن بشر الحافي قال: ما أقبح أن يُطلب العالم، فيقال: هو بباب الأمير!

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن محمد بن وهيب بن هشام قال: أنشدني عن أحمد بن جميل المروزي قال: قيل لعبد اللَّه بن المبارك - رَحِمَهُ اللَّهُ وأرضاه- أن إسماعيل بن علية قد ولي الصدقات فكتب إليه ابن المبارك:

يا جاعِلَ العِلمِ لَهُ بازِيًا ... يَصطادُ أموالَ المَساكينِ

اِحتَلتَ للدُنيا وَلَذّاتِها ... بِحيلَةٍ تَذهَبُ بِالدَينِ

فَصِرتَ مَجنونًا بِها بَعدَما ... كُنتَ دَواءً لِلمَجانينِ

أَينَ رِوايَتُكَ في سَردِها ... لِتَركِ أَبوابِ السَلاطينِ؟

قال: فلما قرأ الكتاب بكى واستعفى[1]

(١) ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين - السيوطي - بتصرف واختصار.

فتاوى الأنظمة الدموية:

إن أخطر من باع دينه بعرض من الدنيا هم علماء السلطان، ومَكمن خطرهم أنّ ضررهم عائد على الدين وأهله، لا على أشخاصهم فحسب، فعِلم بلا تقوى لا قيمة له، وقد شبَّههم اللَّه بأشنع الأوصاف، وأمرنا أن نبغض هذا المسلك، ونحذر الناس منه فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٧].

وقال اللَّه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١١]، فبدأ بالإيمان قبل العلم.

تأسف حين تسمع خطيبًا في ظل الكعبة المشرفة، أو على منبر الأزهر يردد ما يقوله ملوك الجبر. ويدعم الغاصبين لحقوق الإسلام والمسلمين.. ويَجري في هوى الحكام، ويصفهم بالقيادة الرشيدة والحميدة الحكيمة! ويجعل قيامها مع الطغيان مشروعًا وتقتيل الركع السجود مقبولًا، ودفع الأعطيات للجنود القتلة حكمة، ولا يجعل قولته وقومته مشكورة في قضايا المسلمين ونصرتهم، والبلسم الشافي لجراحاتهم..

والآخر يدور في فلك ولي الأمر فيفتي بعدم جواز إثارة قضايا المستضعفين من المسلمين، وحرمة الدعاء على الظالمين في المساجد؛

لأن هذه الأشياء تشغل المصلين عن صلاتهم.

ولكن حين تتروى في فهم الأمر تعلم أن جنود الباطل ليسوا حمَلة الأسلحة والذخائر فقط، وإنما هم أيضًا -شعروا أم لم يشعروا-، علماء وإعلاميون وفنانون وسحرة فرعونيون، ورجال أعمال قارونيون، ووزراء هامانيون. وأحزاب تزعم أنها إسلامية، بل سلفية!

ومن هؤلاء الجنود علماء السوء، علماء اللسان الذين يجادلون بالباطل، كانوا يقولون بأن الخروج على الحكام يجر البلاد إلى الفتنة، ويُجري دماءها أنهارًا.. فقلنا: عن أي فتنة تتحدثون، وقد صرتم جزءًا منها إن لم تكونوا مشعليها؟!

ما بالهم اليوم لا يقولون عن الحكام الطغاة المتجبرين بأنهم هم من جرَّ البلاد إلى الفتنة؟ وأنه بسببهم جرت وتجري دماء المسلمين أنهارًا؟! واعتُقلت الحرائر في سابقة لم يعمل مثلها الصهاينة عليهم لعائن اللَّه. كل ذلك ولم يقولوا: هذا خروج على الحاكم الشرعي.. ولو قالوها لصدقناهم. ولكنهم قالوا خلافها فخالفناهم، بل خالفوا أنفسهم فكذبناهم بأنفسهم.

إذا كان التعبير عن الإرادة الجماهيرية بالوسائل السلمية فهي عندهم خروج على الحاكم، وإذا كان الخروج -ولو بالسلاح- على من بايعته الأمة وانتخبته فهي ولاية متغلب يستحق منا السمع والطاعة، فتلونت فتاويهم كما عهدناهم ينطقون بفقه الحرباء، فقالوا حاكم متغلب. وكذَب شيوخ الجبر ومفتيو الضلال وخطباء الفتنة!

وكذبوا لأنهم غلَّبوه قبل أن يتغلب، وسعوا في تغليبه، وتبرعوا بشرعنة

وضع الباطل وتبرير ممارساته -وإن لم يطلب هو ذلك-. فهم على هذا الهوى قبل أن يتغلب، وقد غلَّبوه بتآمرهم وأموالهم ومخابراتهم، وإنما أُخرجت الفتوى للتبرير.. بل للتدليس والمكر والخداع. لكن: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، فقد حاق بهم الأمر وافتضحوا، وفضيحة الآخرة أخزى، وكيف لا يقولون ذلك وهم أصلًا شيوخ معينون من قبل الظالمين الغاصبين؟ فهم إخوة في الغصب والتغلب وأولياء فيه!

وهذا ليس حاكمًا متغلبًا.. وإنما هو عدو منتصر على المسلمين بقوة السلاح. أو على الأقل طائفة خرجت على الأمة بالسلاح لتفعل بها ما عجز العدو عن فعله.

لماذا يحتاج الطاغية إلى عالم؟

حين سار علماء السلاطين على هذا الخط الشيطاني المنحرف ينعقون بما لا يعتقدون، ويقولون ما لا يفعلون، أهّلهم ذلك ليكونوا الورقة المفضلة عند الظالمين الاستبداديين، والتي استطاعوا من خلالها تحريف عقيدة الكثيرين والتلاعب بعقول البسطاء وفطرة المساكين. وإن كان الساكت عن الحق شيطانًا أخرس، فإن هؤلاء شياطين ناطقة!!

وهناك أسباب عديدة تجعل الطغاة بحاجة إلى علماء يسيرون في ركابهم فيكون لهم مقعد دائم في بلاط الظلم والظالمين، ومن هذه الأسباب:

١- إضفاء المشروعية على الحاكم: إذ إن مجرد وجود العالم المعمَّم بجوار الحاكم الظالم -وإن كان شكليًا- أمرٌ ضروري لأجل تخدير

مشاعر الناس حتى لا يثوروا على حاكمهم؛ لأن عالمهم المعمم يبارك هذه الخطوات، والناس ليسوا بأغير على الشريعة منه!!

فترى الحاكم يحرص على وجوده بجواره في المناسبات والاحتفالات الدينية كذكرى المولد النبوي، والإسراء والمعراج، وليلة القدر، والإعلان عن ميلاد هلال رمضان لأجل الصيام أو شوال لأجل العيد.. وهكذا.

٢- الثناء على الحكام بالمدح الزائف والزائد وتزكيتهم، وأنهم ظل الله في الأرض. ومبعوثو العناية الإلهية.. ولولاهم لهلك الحرث والنسل.. وربما ينتسب بعضهم لبيت النبوة، بل ويوصف بعضهم بصفات الأنبياء، وقد شبَّه عالم بعضهم بموسى أو هارون.

ومع كل جرائم الحكام في حق الدين والرعية، ما زالوا يقولون عنهم أولياء أمور تجب طاعتهم، فقبَّح اللَّه تلك الوجوه، وقبَّح اللَّه تلك اللحى التي تمرغت في الدهن على موائد السلاطين، وتكدست أرصدتهم من مال بيت المسلمين.

إن كثيرًا من علماء اليوم جعلوا من مخالطة السلطان فريضة، والتبسم له عقيدة، بل وصل بهم الأمر إلى الدفاع عن كفرياته، وجعلوا الخروج عليه جريمة.

فهم ملكيون أكثر من الملك! وصدق فيهم قول القائل:

إذا عبدوا مناة أضاف عزى ... يـمـجِّـد مـا رآه كـبـار قـوم

٣- البحث عن مخارج شرعية للسلطة وتبرير تصرفاتها من الناحية الشرعية، فمثلًا: إذا منع الحكام الحجاب، وتركوا إقامة الحدود،

قالوا: لولي الأمر أن يقيِّد المباح، ويؤجل بعض الشرائع بدعوى المصلحة. وهكذا.

وسائل علماء السوء في نصرة الطواغيت:

١- توسيع دائرة الحلال للحكام، وكتمان واجباتهم، وتضييق نفس الدائرة على الرعية، وكتمان حقوقهم، وعلى رأسها رفع المظالم والحريات.

فإذا تعلق الأمر بالحكام التمسوا له المخارج، وشرعنوا تصرفه، فدائرة المباح عند الحكام واسعة جدًّا، ربما تصل إلى تحليل الحرام!

وفتحوا أمامهم الباب على مصراعيه للاستبداد بدعوى المصلحة، والتنصل من الشورى بدعوى أنها ليست ملزمة.

وإذا تعلق الأمر بحقوق الرعية ضاق وانكمش، حتى حرموا التفكير الحر، ومجرد إبداء الرأي، ومناقشة الحاكم، والتعقيب على تصرفاته، أو تقييم أدائه، لأن هذا -في نظرهم- خروج على الحاكم، وإفساد في الأرض.

٢- التشهير بأعداء السلطة، ورميهم بالفسق والخروج، سواء أكانوا علماء أو شرفاء من أيِّ فصيلٍ كانوا.

وقد رأيناهم يوزعون التُّهَم باسم الشرع على معارضي الأنظمة الاستبدادية تزلفًا وتكلفًا!!

٣- التخلص من علماء الصدق باعتبارهم منافسين، فقد رأينا بعضهم يصف الدعاة المسلمين بأنهم إخوان الشياطين، وتخرج الفتوى من

أفواههم بجواز تصفيتهم باسم الدين.

ورأينا من يتهم دعاة الحرية بالخيانة والعمالة والحرابة، وغير ذلك من التهم الملفقة، ويقوم بشيطنة من يخالف الحاكم، ويفتي باستباحة دمه وماله وعرضه باسم الدين!!

عن الحسن قال: خطب عمر بن الخطاب فقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم أن يؤخذ المسلم البريء عند الله -تعالى- فيشاط لحمه كما يشاط لحم الخنزير، فيقال: عاص، وليس بعاص، فقام عليّ من تحت المنبر فقال: ومتى ذاك يا أمير المؤمنين، ومتى تشتد البلية، وتعظم الحمية، وتسبى الذرية، وتدقهم الفتن كما تدق الرحى ثقلها، وكما تأكل النار الحطب؟ فقال له عمر ﷺ: ومتى يكون ذلك يا عليّ؟ قال: إذا تفقهوا لغير الدين، وتعلموا لغير العمل، وطلبوا الدنيا بعمل الآخرة»[1].

* * * * *

(١) كنز العمال (١٠ / ٧٠).

الفصل الخامس
مع العلماء الصادقين

الفصل الخامس
مع العلماء الصادقين

ليس معنى ما تقدم أن الصورة قاتمة، أو أن الأمل تبدد -عياذًا باللَّه تعالى- فالأمة الإسلامية -والحمد للَّه- لم تعدم علماء صادقين، زينوا جبين التاريخ في كل عصر من عصور الإسلام، ولا تخلو الأرض من قائم للَّه بحجة، وهم لآلئ كثيرة منثورة عبر الخريطة الزمانية والمكانية للأمة الإسلامية، وذلك مصداقًا لقول النبي: «يحمل هذا الدين من كل خلف عُدُوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[١].

أعلم أن الكلام عن فساد العلماء ثقيل على نفس القارئ الكريم -كما هو ثقيل على نفسي أيضًا-، ولذلك جعلت هذا الفصل ترطيبًا للأسماع، وتثبيتًا للنفوس ليعلم الصادقون في هذا الزمان -وفي كل زمان ومكان- أنهم ليسوا وحدهم، وأن هذه الأمة ولادة، وسنذكر هنا بعضًا من نماذج العلماء الذين وفوا بميثاق رب العالمين، وكانوا شوكة في حلوق المبطلين، وهي ذكرى للمنبطحين -إن نفعت الذكرى- والذكرى تنفع المؤمنين.

قال ﷺ: «إن رحى الإسلام دائرة، وإن الكتاب والسلطان سيفترقان،

(١) أخرجه البزار (كشف ١/ ٨٦) وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٥٩) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٥٣). وفي بيان معنى الحديث وشرحه لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كلام بديع في كتابه مفتاح دار السعادة (ص١٧٧).

فدوروا مع الكتاب حيث دار، وستكون عليكم أئمة إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم، قالوا: فكيف نصنع يا رسول اللَّه؟ قال: كونوا كأصحاب عيسى. نُصبوا على الخشب ونُشروا بالمناشير، موت في طاعة خير من حياة في معصية»(١)

وفي الحديث الآخر: «لا طاعةَ لمَنْ عصَى اللَّهَ»(٢)

فمن كان أصله ودَيدَنه وهجِّيراه معصية اللَّه، خارجًا عن طاعته وشريعته، فلا طاعة له أبدًا، لأنه عصى اللَّه أصلًا ومطلقًا، وصار اسم العاصي أغلب عليه وأصدق فيه من اسم الطائع، وهذا حال غالب حكام العرب والمسلمين. وفي الحديث الآخر: «لا طاعة لمن لم يطع اللَّه»(٣)

فشخصٌ دينه وديدنه وسحابة يومه أنه لم يطع اللَّه في وظيفته، التي هي سياسة الدنيا بالدين، فهذا لا طاعة له أصلًا؛ لأنه لم يطع اللَّه، وصار اسم العاصي أصدق عليه من اسم الطائع.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رَسُول اللَّهِ ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا! اتق اللَّه ودع ما تصنع؛ فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب اللَّه قلوب بعضهم ببعض» ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨١٠) وقال: حسن صحيح. والحاكم (٦٢٤٢) وقال: صحيح الإسناد. وضعفه الشيخ الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (ص ١١).
(٢) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم: (٥٩٠).
(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٧٥٢١).

إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ -٨١] ثم قال: «كلا واللَّه لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن اللَّه بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»[(١)]

وإن من يُقلب تاريخ أمتنا يجد أسطرًا من نور، سطَّرها أولئك الأفذاذ من علماء الهدى في مواجهة حكام الجَوْر.

وهاك بعض مواقف السادة من العلماء الربانيين:

سعيد بن المسيب رفض استخلاف الحاكم لولديه من بعده:

أمر عبد الملك بن مروان الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان وهو حي، وفي ذلك تكريس للاستبداد، واستخفاف برأي الأمة، وكأنها متاع يُورَث، فبايع الناس، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان.

وكان على المدينة هشام بن إسماعيل، فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا، إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى، وقال: لا أبايع وعبد الملك حي، فضربه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) والترمذي (٢/ ١٧٥) وابن ماجه (٤٠٠٦) والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٦١ - ٦٢) وابن جرير في «التفسير» (٦/ ٣٠٥) وأحمد في «المسند» (١/ ٣٩١)، وقال الألباني: «والحديث وإن كان سنده ضعيفا إلا أن معناه صحيح».

هشام ضربًا مبرحًا، وطاف به وهو في تُبَّان شعر حتى بلغ رأس الثنية التي يُقتلون ويُصلبون عندها، ثم ردوه وحبسوه، فقال سعيد: «لو ظننت أنهم لا يصلبونني ما لبست ثياب مسوح، ولكنني قلت: يصلبونني فيسترني»[(١)]

وكان بعض الوسطاء حاولوا استدراك الموقف، فأشاروا عليه بعدم التواجد في المسجد أثناء البيعة فرفض قائلًا: أسمع النداء ولا أجيب؟ فاقترحوا عليه، أن يسمع ولا ينكر، ويكتفي بسكوته، فرفض أيضًا؛ لأن سكوته سيكون إقرارًا، وهذا لا يليق بالعلماء.

وكان سعيد قد امتنع قبل ذلك من بيعة ابن الزبير؛ لأنه رآه أخذ البيعة بالتغلب بعد موت يزيد، ومثل هذا الوضع لا بد أن يجتمع المسلمون على بيعة الحاكم، وقال سعيد: «لا أبايع حتى يجتمع الناس»، فضربه جابر بن الأسود عامل ابن الزبير ستين سوطًا.

حطيط الزيات:

كان الفتى العالم حطيط الزيات يكثر النكير على الحجاج بن يوسف، فطلبه حتى قبض عليه، وجيء به إليه، فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟ قال: نعم.

ثم قال حطيط: سل عما بدا لك، فإني عاهدت اللّه عند المقام على ثلاث خصال: إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن.

---

(١) انظر في ترجمته: طبقات ابن سعد (٥/ ١١٩)، تاريخ البخاري (٣/ ٥١٠)، الحلية (٢/ ١٦١)، طبقات الفقهاء للشيرازي (٥٧)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٥)، تهذيب الكمال (ص ٥٠٥)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٨٨)، تذكرة الحفاظ (١/ ٥١)، البداية والنهاية (٩/ ٩٩).

قال الحجاج: فما تقول فيّ؟

قال: أقول فيك: إنك من أعداء اللَّه في الأرض، تنتهك المحارم، وتقتل بالظنة.

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول إنه أعظم جرمًا منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه.

فأمر الحجاج أي يضعوا عليه العذاب، فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال، ثم جعلوه يمدون -يستلون- قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئًا!!

فقيل للحجاج إنه في آخر رمق.. فقال أخرجوه.. فارموا به في السوق.

قال جعفر -وهو الراوي- فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له: حطيط ألك حاجة؟

قال شربة ماء.. فأتوه بشربة ثم استشهد.

وكان عمره ثماني عشرة سنة، رَحِمَهُ اللَّهُ[1]

شهادة في سبيل اللَّه نالها حطيط، وينالها كل من يسير على درب حطيط.

استُشهد حطيط ليبلغ مبلغ أعلى درجات الشهادة مع الحمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصداقًا لحديث رسول اللَّه: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب،

(١) الإحياء (٥/ ٥٤).

ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[1]

ومظلمة للحجاج - وكل حجاج في كل زمان - يبوء بإثمها وعقابها الشديد يوم يجتمع الخصوم عند مليك مقتدر.

وهذه صورة رائعة في ثبات العلماء أمام الحكام، تبرز صلابتهم في التمسك بدينهم، ولو أدى ذلك إلى فقدان المهج والأرواح!

سعيد بن جبير والحجاج:

إن سعيد بن جبير يرى أن الحكام لا ينالون الطاعة بالمجان، وإنما الطاعة لهم مشروطة بأمور فصّلها الشرع، وقبل أن تُطلب الطاعة لا بد من تحديد من هو الحاكم الذي يُطاع ولا يجوز الخروج عليه أولًا؟!

ولأمور يعلمها ابن جبير من الحجاج أجاز لنفسه -وهو العالم الثبت- ضرورة مواجهة ظلم الحجاج، فكان ممن خرج على الأمراء في زمانه مع ابن الأشعث.

وسعيد بجانب ورعه وتقواه لا يخشى في اللَّه لومة لائم.. وكان من الطبيعي وهو يرى أخذ الحجاج الناس بالشبهات، ويرى الدماء تُسفك وآلاف الناس تُختطف على يده بين أسوار السجون والمعتقلات بلا جريرة، وهو الذي كان يعتبر نفسه الدرع الواقي للدولة الأموية، والخادم المطيع لخلفائها من بني مروان، فانضم سعيد بن جبير لثورة ابن الأشعث المسلحة، وكانت تسمى بثورة الفقهاء، إلا أن الحجاج تغلب

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢١٥ ، رقم ٤٨٨٤) وقال صحيح الإسناد. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٦٤٨).

عليهم، وأخذ الحجاج في الانتقام ممن خرجوا مع ابن الأشعث، فقتل العشرات، وحاكم العشرات، ومن الذين قرر محاكمتهم سعيد بن جبير.

وقد روى المؤرخون أن سعيد بن جبير كان يصف الحجاج بالظلم والبطش، وكان ينصح الناس بمخالفته وبالوقوف في وجهه، وضاق الحجاج ذرعًا بتصرفات سعيد فلما استمكن منه، دارت بينهما مناقشة طويلة تدل على قوة إيمان سعيد، وصدق يقينه، وثبات جنانه وشجاعته في الحق.

المحاكمة الصورية.. وحكم الإعدام:

جيء به إلى الحجاج فقال: أدخلوه عليَّ فأدخل عليه، فقال: ما اسمك؟

قال: سعيد بن جبير.

قال: أنت شقي بن كُسَيْر.

قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك.

قال: شقيت أنت وشقيت أمك.

قال: الغيب يعلمه غيرُك.

قال: لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى.

قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا.

قال: فما قولك في محمد؟

قال: نبي الرحمة، إمام الهدى.

قال: فما قولك في عليّ، في الجنة هو أم في النار؟

قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت.

قال: فما قولك في الخلفاء؟

قال: لست عليهم بوكيل.

قال: فأيهم أعجب إليك؟

قال: أرضاهم لخالقي.

قال: فأيهم أرضى للخالق؟

قال: علم ذلك عنده.

قال: أبيت أن تصدقني.

قال: إني لم أحب أن أكذبك.

قال: فما بالك لم تضحك؟

قال: لم تستوِ القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فجمعه بين يدي سعيد.

فقال له سعيد: إن كنت جمعته لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالِح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جُمع للدنيا، إلا ما طاب وزكا.

فقال الحجاج: ويلك يا سعيد!

قال: الويل لمن زُحزح عن الجنة وأُدخل النار.

قال: اختر أيّ قتلةٍ تريد أن أقتلك بها.

قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قُتلت مثلها في الآخرة والقصاص أمامك.

قال: فتريد أن أعفو عنك؟

قال: إن كان العفو، فمن اللَّه، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج من الباب، ضحك، فأخبر الحجاج بذلك، فأمر برده، فقال: ما أضحكك؟

قال: عجبت من جرأتك على اللَّه وحلمه عليك!

فأمر بالنطع - بساط من جلد - فبسط، فقال: اقتلوه.

فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

قال: شدوا به لغير القبلة.

قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

قال: كبُّوه لوجهه.

قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

قال: اذبحوه

قال: إني أشهد وأحاجّ أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة، ثم دعا سعيد ربه، وقال: «اللَّهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي»، وقُدِّم سعيدٌ فذُبِحَ على النطع.

فلما قُتل سعيد بن جبير، خرج منه دم كثير حتى راع الحجاج، فدعا طبيبًا قال له: ما بال دم هذا كثير؟ قال: إن أمنتني أخبرتك، فأمنه،

قال: قتلته ونفسه معه «يعني لم يهرب الدم من عروقه كما هي حالة الناس عندما يقدمون للإعدام».

وتحقق ما دعا به سعيد، وعاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة، وقعت في بطنه الأكلة فدعا بالطبيب لينظر إليه، فنظر إليه، ثم دعا بلحم منتن، فعلقه في خيط ثم أرسله في حلقه، فتركه ساعة ثم استخرجه وقد لزق به من الدم، فعلم أنه ليس بناجٍ.

وكان كلما غلبه المرض يصيح ويقول: ما لي وسعيد بن جبير؟!

وصدق رسول اللّه ﷺ إذ يقول: «ثلاث دعوات مستجابات: دعوة الصائم، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر»[١]

ومن ذلك ما رواه الترمذي: «ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها اللّه فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»[٢]

استشهد سعيد بن جبير عن سبع وخمسين سنة، وكان لما دُعي للقتل جعل ابنه يبكي، فقال: ما يبكيك؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة؟ وكان استشهاده في شعبان سنة خمسة وتسعين من الهجرة[٣]

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٢٦) وصححه الألباني.

(٣) انظر في ترجمته: طبقات ابن سعد (٦/ ٢٥٦)، تاريخ البخاري (٣/ ٤٦١)، طبقات الفقهاء للشيرازي (٨٢)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٧١)، تهذيب الكمال (٤٨٠)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢)، تذكرة الحفاظ (١/ ٧١)، العبر (١/ ١١٢)، البداية والنهاية (٩/ ٩٦، ٩٨)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٣١)، خلاصة تذهيب التهذيب (١٣٦)، شذرات الذهب (١/ ١٠٨).

رحمة اللَّه على سعيد بن جبير ونسأل اللَّه -تعالى- أن يلحقنا به على الإسلام.

الإمام الأوزاعي (كلمة حق تحت ظلال السيوف):

كان الإمام الأوزاعي سيفًا مسلطًا على المنكر بشتى أصنافه وألوانه، خصوصًا في مواقفه مع الظلمة الذين كانوا ربما نال بعضهم من أصحاب الرسول -ﷺ- أو آذوا أهل سنته.

قال ابن كثير: لما دخل الأوزاعي دمشق ناداه الأمير عبد اللَّه بن علي عم السفاح الذي قاتل بني أمية، وأجلاهم من الشام، فتغيب عنه الأوزاعي ثلاثة أيام، ثم طلبه ثانية فحضر بين يديه بعدما تهيأ للموت.

ويحكي لنا ابن كثير القصة على لسان الأوزاعي فيقول: قال الأوزاعي: دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسوّدة عن يمينه وشماله، معهم السيوف مصلتة والعمد الحديد، فسلمت عليه، فلم يرد السلام، ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده، ثم قال:

يا أوازعي، ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة؟ أجهادًا ورباطًا هو؟

فقلت: أيها الأمير! قال عمر بن الخطاب سمعت رسول اللَّه يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى اللَّه ورسوله فهجرته إلى اللَّه ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فنكت الخيزرانة أشد ما كان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم.

ثم قال: ما تقول في دماء بني أمية؟

قال: قلت: قد كانت بينك وبينهم عهود وكان ينبغي أن تفوا بها.

فرد عبد اللّه: ويحك، اجعلني وإياهم لا عهد بيننا -أي: افترض أنه لا عهد بيننا-.

يقول الأوزاعي: فأجهشت نفسي وكرهت القتل، فذكرت مقامي بين يدي اللّه فلفظتها- أي: هانت عليّ في سبيل اللّه- فقلت: دماؤهم عليك حرام، فغضب عبد اللّه بن علي وقال: ويحك! ولم؟

فرددت عليه: قال رسول اللّه ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: ثيب زان، ونفس بنفس، وتارك لدينه»[1]

قال: ويحك أو ليس الأمر لنا؟ أليس كان رسول اللّه -ﷺ- أوصى لعليّ؟

قال الأوزاعي: لو أوصى إليه ما حكّم الحكمين، فسكت واشتعل غضبًا، وجعلت أتوقع رأسي يسقط بين يدي، فنكت بها أشد من ذلك.

ثم قال: ما تقول في أموالهم؟

فقلت: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك، وإن كانت لهم حلالًا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي.

وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، وضم الناس ثيابهم لئلا تتلوث من دمي، وقربوا مني السيوف، ثم أمرني بالانصراف، فلما خرجت إذا برسوله

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٤) ومسلم (١٦٧٦).

من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فأمرني بأخذها، فوقفت فتصدقت بها قبل أن أبرح المكان ورسول الأمير وجنده ينظرون إليّ.

وكان الأوزاعي في تلك الأيام الثلاثة صائمًا طاويًا، فيقال: إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الإفطار عنده، فأبى.

وتمر الأيام ويموت الأوزاعي فوقف الأمير على قبره، وقال: ما كنت أهاب أحدًا على الأرض كما كنت أهابك، كنت أهابك أكثر من هيبتي ممن ولاني، وكنت إذ رأيتك كأنما أرى الأسد بارزًا![1]

أحمد بن حنبل... إمام رهين الأغلال:

كانت شخصية الإمام أحمد رمزًا للصمود والثبات على الإيمان الراسخ ورفض الأفكار الدخيلة على الإسلام وعقيدته الصافية.

وكانت وقفة الإمام أحمد بن حنبل عظيمة في وجه الظلم، وفي وجه حملة تحريف الدين الإسلامي، وفي وجه هرطقة المعتزلة، وتخبّطهم في علوم وخفايا الدين، وقد صمد الإمام بالرغم من التعذيب والضرب بالسياط والحبس، والملاحقة والإغراء، وفرض الإقامة الجبرية.

لمّا دعا المأمون الناس إلى القول بخلق القرآن، أجابه أكثر العلماء والقضاة مُكْرهين، واستمر الإمام أحمد ونفرٌ قليل على حمل راية

---

(١) انظر في ترجمته: طبقات ابن سعد (٧/٤٨٨)، التاريخ الكبير (٥/٣٢٦)، مشاهير علماء الأمصار (ص١٨٠)، حلية الأولياء (٦/ ١٣٥ - ١٤٩)، وفيات الأعيان (٣/ ١٢٧ - ١٢٨)، تاريخ الإسلام (٦/ ٢٢٥ - ٢٣٨)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٧٨ - ١٨٥)، ميزان الاعتدال (٢/ ٥٨٠)، البداية والنهاية (١٠/ ١١٥ - ١٢٠)، طبقات الحفاظ: (٧٩)، شذرات الذهب (١/ ٢٤١ - ٢٤٢).

الحق، والدفاع عن معتقد أهل السنة والجماعة.

قال أبو جعفر الأنباري: «لمَّا حُمِلَ الإمام أحمد بن حنبل إلى المأمون أُخْبِرتُ فعبرتُ الفُرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمتُ عليه.

فقال: يا أبا جعفر تعنَّيت؟

فقلتُ: ليس هذا عناء، وقلتُ له: يا هذا أنت اليوم رأس الناس، والناس يقتدون بكم، فو اللَّه لئن أجبتَ ليُجيبُنَّ بإجابتك خلقٌ كثير من خلقِ اللَّه تعالى، وإنْ أنتَ لم تُجِبْ ليمتنِعُنَّ خلقٌ مِنَ الناس كثير، ومع هذا فإنَّ الرجل إنْ لم يقتلك فإنَّك تموت، ولا بدَّ مِنْ الموت، فاتَّقِ اللَّه ولا تُجيبهم إلى شيء.

فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء اللَّه، ما شاء اللَّه.

ثم سار أحمد إلى المأمون، فبلغه توعد الخليفة له بالقتل إنْ لم يُجبه إلى القول بخلقِ القرآن، فتوجه الإمام أحمد بالدعاء إلى اللَّه- تعالى- أنْ لا يجمع بينه وبين الخليفة، فبينما هو في الطريق قبل وصوله إلى الخليفة؛ إذ جاءه الخبر بموت المأمون، فَرُدَّ الإمام أحمد إلى بغداد وحُبِس، ثم تولَّى الخلافة المعتصم، فامتحن الإمام أحمد.

الرأس لا يترخص:

إن العالِم يوم رضي أن يكون مبلِّغًا عن اللَّه -تعالى- ومربيًا وموجهًا ورائدًا يفزع الناس إليه. يسألونه ويستفتونه. ويستنصحونه. يصير رأسًا في الحق، ولا يليق بالرأس إلا أن يكون شامخًا، وما أكثر الأقدام التي تزل حين تزل قدم العالم، وما أكثر القلوب التي تُفتن حين يُفتن العالم، بفتنة الخير أو الشر!! وما أكثر الذين يُضلهم ترخُّص العلماء!

ولقد أدرك الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الحقيقة.. أنه عالمٌ ينظر الناس إليه ويقتدون به، فاحتمل الأذى، ورضي بالسجن، وصبر على السياط التي تلهب ظهره، حتى لا يكون فتنة لأحدٍ، وحتى لا يضل بموقفه الناس.

وحين ازداد الضغط عليه عرض عليه أحد المتعاطفين- وهو الإمام المروزي - حتى يأخذ بالتقية فينقذ نفسه من القتل، قائلًا: يا أستاذ، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٩].

فقال له الإمام: يا مروزي اخرج انظر أي شيء ترى؟

قال: فخرجت إلى رحبة دار الخليفة، فرأيت خلقًا من الناس لا يحصي عدده إلا اللَّه، والصحف في أيديهم، والأقلام والمحابر في أذرعتهم.

فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟!

فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه..

قال المروزي: مكانكم، فدخل إلى أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ وقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول، فيكتبونه.

فقال: يا مروزي أأضل هؤلاء كلهم؟! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء.

من مواقفه في المحنة:

وكان مِنْ خبر المحنة أنَّ المعتصم لمَّا قصد إحضار الإمام أحمد ازدحم الناس على بابه كيوم العيد، وبُسِطَ بمجلسه بساط، ونُصِبَ كرسي جلس عليه، ثم قال: أحضروا أحمد بن حنبل، فأحضروه، فلمَّا وقف بين يديه سَلَّمَ عليه، فقال له: يا أحمد تكلم ولا تَخَفْ.

فقال الإمام أحمد: واللَّه لقد دخلتُ عليك وما في قلبي مثقال حبَّةٍ من الفزع.

فقال له المعتصم: ما تقول في القرآن؟

فقال: كلام اللَّه قديم غير مخلوق، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فقال له: عندك حجة غير هذا؟

فقال: نعم، قول اللَّه تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، ولم يقل: الرحمن خلق القرآن، وقوله تعالى: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١-٢]، ولم يقل: يس والقرآن المخلوق.

فقال المعتصم: احبسوه، فحُبِسَ وتفرَّقَ الناس، فلمَّا كان مِنَ الغد جلس المعتصم مجلسه على كرسيه، وقال: هاتوا أحمد بن حنبل، فاجتمع الناس، وسُمعت لهم ضجة في بغداد، فلمَّا جيء به وقف بين يديه والسيوف قد جُردت، والرماح قد ركزت، والأتراس قد نُصبت، والسياط قد طُرحت، فسأله المعتصم عمَّا يقول في القرآن؟

قال: أقول: غير مخلوق.

قال له المعتصم: كيف كنت يا أحمد في محبسك البارحة؟

فقال: بخير والحمد للَّه، إلا أني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمرًا عجبًا!

قال له: وما رأيت؟

قال: قمتُ في نصف الليل فتوضأت للصلاة، وصليت ركعتين، فقرأت في ركعة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وفي الثانية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ثم جلست وتشهدت

وسلمت، ثم قمت فكبرت وقرأت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وأردت أن أقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلم أقدر، ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر، فمددت عيني في زاوية السجن، فإذا القرآن مسجًّى ميتًا، فغسلته وكفنته وصليت عليه ودفنته.

فقال له: ويلك يا أحمد، والقرآن يموت؟

فقال له أحمد: فأنت كذا تقول إنه مخلوق، وكل مخلوق يموت.

فقال المعتصم: قهرنا أحمد، قهرنا أحمد.

مناظرات تحت لهيب السياط:

وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته في مدة ثلاثة أيام، وهو يناظرهم ويظهر عليهم بالحُجج القاطعة، ويقول: أنا رجل عَلِمتُ علمًا ولم أعلم فيه بهذا، أعطوني شيئًا من كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به.

وكان كلما ناظروه وألزموه القول بخلق القرآن يقول لهم: كيف أقول ما لم يُقل؟

وكان من المتعصبين عليه محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم، وأحمد بن دُوَاد القاضي، وبشر المريسي، وكانوا معتزلة قالوا بخلق القرآن، فقال ابن دُوَاد وبشر للخليفة: اقتله حتى نستريح منه، هذا كافر مُضِل، فقال الخليفة: إني عاهدتُ اللّه ألا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف، فقالا له: اضربه بالسياط، فقال المعتصم له: وقرابتي من رسول اللّه ﷺ لأضربنَّك بالسياط أو تقول كما أقول، فلم يُرهبه ذلك، فقال المعتصم: أحضروا الجلادين، فقال المعتصم لواحد منهم: بكم

سوطٍ تقتله؟ (حتى لا يخيس بعهده ويتم له قتل الإمام بالسوط دون السيفِ)، قال: بعشرة، قال: خذه إليك، فأُخْرِجَ الإمام أحمد من أثوابه، وشُدَّ في يديه حبلان جديدان، ولمَّا جيء بالسياط فنظر إليها المعتصم قال: ائتوني بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا.

فلما ضرب سوطًا قال: بسم اللَّه، فلمَّا ضُرِبَ الثاني قال: لا حول ولا قوة إلَّا باللَّه، فلمَّا ضُرِبَ الثالث قال: القرآن كلام اللَّه غير مخلوق، فلمَّا ضُرِبَ الرابع قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وجعل الرجل يتقدَّم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين، فيحرِّضه المعتصم على التشديد في الضرب، ثم يتنحَّى، ثم يتقدَّم الآخر فيضربه سوطين، فلمَّا ضُرِبَ تسعة عشر سوطًا قام إليه المعتصم فقال له: يا أحمد علام تقتل نفسك؟ إني واللَّه عليك لشفيق!

وإذا بالمئزر من وسطه قد انحل من شدة الضرب، ويريد أن يسقط، فرفع الإمام رأسه نحو السماء وحرَّك شفتيه، وإذا الأرض قد انشقت، وخرج منها يدان فوارتاه بقدرة اللَّه عز وجل، فلما أن نظر المعتصم إلى ذلك قال: خلوه.

فتقدم إليه ابن أبي دؤاد وقال له: يا أحمد، قل في أذني: إن القرآن مخلوق حتى أخلصك من يد الخليفة؛ فقال له أحمد: يا ابن أبي دؤاد، قل في أذني إن القرآن كلام اللَّه غير مخلوق، حتى أخلصك من عذاب اللَّه عز وجل.

قال أحمد: فجعل عجيف (أحد بطانة السوء) ينخسني بقائمة سيفه، وقال: تريد أنْ تغلب هؤلاء كلهم؟!

وجعل بعضهم يقول: ويلك! الخليفة على رأسك قائم، وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي اقتله.

وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين: إنه صائم وأنت في الشمس قائم، فقال لي: ويحك يا أحمد ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئًا من كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به.

ثم رجع الخليفة فجلس ثم قال للجلاد: تقدَّم، وحَرَّضه على إيجاعه بالضرب.

قال الإمام أحمد: فذهب عقلي (يعني: غاب عن الوعي ولم يشعر بالضرب)، فأفقت بعد ذلك، فإذا الأقياد قد أُطلِقت عنِّي، فأتوني بسويق فقالوا لي: اشرب وتقيأ، فقلت: لستُ أُفطر، ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرتُ صلاة الظهر، فتقدَّم ابن سماعة فصلى، فلمَّا انفتل من الصلاة قال لي: صليتَ والدمُ يسيل في ثوبك، فقلت له: قد صلَّى عمر رضي الله عنه وجرحه يسيل دمًا. «**لاحظ من يتورع من الدم على ثوب المصلي ولم يتورع من ممالأة الظالمين**».

قال أحد الجلادين بعد أن تاب: لقد ضربت الإمام أحمد (٨٠) جلدة، لو ضربتُها في فيل لسقط[1]

---

(١) انظر في ترجمته: طبقات ابن سعد (٧/ ٣٥٤، ٣٥٥)، التاريخ الكبير (٢/ ٥)، حلية الأولياء (٩/ ١٦١، ٢٣٣)، تاريخ بغداد (٤/ ٤١٢، ٤٢٣)، طبقات الحنابلة (١/ ٤، ٢٠)، وفيات الأعيان (١/ ٦٣، ٦٥)، تذكرة الحفاظ (٢/ ٤٣١)، البداية والنهاية (١٠/ ٣٢٥، ٣٤٣)، طبقات الحفاظ (ص١٨٦)، مناقب الإمام أحمد، خلاصة تذهيب الكمال (ص ١١، ١٢)، شذرات الذهب (٢/ ٩٦، ٩٨).

العز بن عبد السلام وموقفه من الحكام الخائنين:

لم يكن هذا الشيخ ليسكت عن خطأ، أو يسمح بتجاوز في حق الأمة، أو تفريط في ثوابتها؛ فأفتى بحرمة بيع السلاح للفرنج بعد أن ثبت أنه يُستخدم في محاربة المسلمين، ثم أعقب ذلك بخطبة مدوية في الجامع الأموي قبَّح فيها الخيانة وغياب النجدة والمروءة، وذمَّ ما فعله السلطان الصالح إسماعيل، وقطع الدعاء له بالخطبة، وكان ذلك بمثابة إعلان للعصيان العام، وقال في آخر خطبته: «اللَّهم أبرم أمر رشد لهذه الأمة يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر بالمعروف وينهى فيه عن المنكر"، ثم نزل.

وما كان من الحاكم (الصالح إسماعيل) إلا أن أقدم على عزل الشيخ الجليل عن الخطابة والإفتاء، وأمر باعتقاله، ومن العجب أنه تندَّر باعتقال الشيخ يخطب بذلك وُدّ الصليبيين! فأطلعهم على حاله وهو في القيد ليؤكد ولاءه لهم! فقالوا: «**لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقها**»، ثم فك حبسه بعد مدة خوفًا من غضبة الناس، ووضعه رهن الإقامة الجبرية، وألزمه بيته، ومنعه من الإفتاء.

رفض الشيخ للمساومة الدنيئة:

كان بإمكان العز بن عبد السلام أن يعيش في كنَف السلطان ويستمتع بالحياة بعمل بسيط وهو تغيير فتواه، ويلتمس مخرجًا شرعيًّا لخيانة هذا الحاكم، لكن ذلك لم يكن.

ثم خرج العز بن عبد السلام من دمشق إلى جهة بيت المقدس فأرسل إليه الصالح إسماعيل رسولًا من بطانته، وطلب منه ملاطفة العز وملاينته

بالكلام الحسن، وأن يعود إلى ما كان عليه من الوظائف في مقابل أن يعتذر للسلطان، فذهب الرجل إلى العز، وقال له: ليس بينك وبين أن تعود إلى منصبك وأعمالك وزيادة على ما كنت عليه، إلا أن تأتي وتُقَبِّل يد السلطان لا غير، فضحك العز وقال: «**يا مسكين، واللّه ما أرضى أن يُقَبِّلَ الملك الصالح إسماعيل يدي فضلًا عن أن أُقَبِّلَ يده، يا قومُ إنا في وادٍ، وأنتم في وادٍ آخر، الحمد للّه الذي عافاني مما ابتلاكم به**». فما كان من الملك إلا أن أمر بحبسه.

بائع الأمراء:

وبعدما أفرج عنه رحل إلى مصر، وفي أثناء قيامه بعمله في القضاء اكتشف أن القادة الأمراء الذين يعتمد عليهم الملك الصالح أيوب في مصر لا يزالون أرقاء لم تذهب عنهم صفة العبودية؛ وما دام هؤلاء الأمراء أرقاء فلا تثبت ولايتهم ولا تنفذ تصرفاتهم العامة والخاصة ما لم يُحرَّرُوا، فأبلغهم بذلك، ثم أوقف تصرفاتهم في البيع والشراء والنكاح وغير ذلك مما يثبت للأحرار من أهلية التصرف، فتعطلت مصالحهم، وكان من بين هؤلاء الأمراء نائب السلطان.

وحاول هؤلاء الأمراء مساومة الشيخ فلم يفلحوا، وأصرَّ على بيعهم لصالح بيت المال، ثم يتم عتقهم ليصبحوا أحرارًا تنفذ تصرفاتهم، قائلًا لهم: نعقد لكم مجلسًا، ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي.

وما كان ذلك ليرضيهم فرفضوا ورفعوا الأمر إلى السلطان الصالح أيوب، فراجع الشيخ في قراره فأبى، وتلفظ السلطان بكلمة ندَّت منه

أغضبت الشيخ، وفهم منها أن هذا الأمر لا يعنيه ولا يتعلق بسلطته، فانسحب الشيخ وعزل نفسه عن القضاء، وعزم على الخروج من مصر، فما قيمة أحكامه إذا لم تُنفذ، أو كانت مرهونة برضا صاحب الجاه والسلطان؟

وما أن انتشر خبر ما حدث، حتى خرجت الأمة وراء الشيخ العز الذي غادر القاهرة وأدرك السلطان خطورة فعلته، فركب في طلب الشيخ واسترضاه وطيَّب خاطره واستمال قلبه، وطلب منه الرجوع معه، فوافق العز على أن يتم بيع الأمراء بالمناداة عليهم.

فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة، فلم يفد معه، فانزعج النائب وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ واللَّه لأضربنه بسيفي هذا، فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج أحد أولاد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه، وشرح له الحال، فما اكترث لذلك ولا تغير، وقال: يا ولدي، أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل اللَّه، ثم خرج كأنه قضاء اللَّه قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال:

يا سيدي خير، أيش تعمل؟

قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

قال: ففيم تصرف ثمننا؟

قال: في مصالح المسلمين.

قال: من يقبضه؟

قال: أنا.

فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم، وقبضه، وصرفه في وجوه الخير، وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحدٌ، رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ورضي عنه.

وكانت هذه الوقعة الطريفة سببًا في إطلاق اسم بائع الملوك على الشيخ المهيب[1]

بين النووي والظاهر بيبرس:

مناصحة الحكام ميدان قصَّر فيه كثير من العلماء الذين قصروا جهودهم على البحث والدرس، فأطالوا بسكوتهم أعمار الظالمين.

كثير منا لا يعرف عن النووي إلا أنه صاحب كتاب رياض الصالحين أو الأذكار أو غيرهما، وما أسهل التأليف إذا ما قِيس إلى أعباء مواجهة الباطل وإلزام الناس الحق لا سيما إذا صدع صاحب الحق به بين يدي الظالمين؛ لأجل ذلك فإن «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[2]

ويتجلى هذا الأمر عند استعراض موقف النووي من الظاهر بيبرس

---

(١) انظر في ترجمته: طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٠٩)؛ ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) (٧/ ٢٠٨)؛ ابن العماد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) (٥/ ٢٠٣)، السيوطي (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) (٢/ ١٦١)؛ ابن واصل (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) (٥/ ٣٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢١٢)، وأبو داود (٤٣٤٤) ، وابن ماجه (٤٠١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٩١).

سلطان المسلمين في هذين الموقفين:

الأول: قضية الحوطة على بساتين الشام:

لما قدم السلطانُ الملكُ الظاهرُ بيبرسُ إلى دمشق بعد قتال التتار وإجلائهم عن البلاد، زعم له وكيل بيت المال أن كثيرًا من بساتين الشام من أملاك الدولة، فأمر الملك بالحوطة عليها -أي: بحجزها ومصادرتها-، وتكليف واضعي اليد على شيءٍ منها إثبات ملكيته، وإبراز وثائقه، فلجأ الناس إلى الشيخ في دار الحديث، فكتب إلى الملك كتابًا جاء فيه:

«وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواعٌ من الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثباتٌ لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحلّ عند أحد من علماء المسلمين، بل مَن في يده شيء فهو ملكه، لا يحلّ الاعتراض عليه ولا يُكلَّفُ إثباته» يشير الشيخ لحديث: «من أحيى أرضًا مواتًا فهي له»[١]

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه، وأمر بقطع رواتب الشيخ وعزله عن مناصبه، فقالوا له: إنه ليس للشيخ راتب وليس له منصب.

ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفِدْ، مشى بنفسه إليه وقابله وكلّمه كلامًا شديدًا، وأراد السلطان أن يبطشَ به فصرف اللّه قلبَه عن ذلك وحمى الشيخَ منه، وأبطلَ السلطانُ أمرَ الحوطة، وخلَّصَ اللّه الناس من شرّها.

---

(١) أورده البخاري في صحيحه معلقًا مجزومًا به، صحيح البخاري - كتاب المزارعة - باب من أحيا أرضًا مواتًا (٢/ ٨٢٢).

الموقف الثاني: لا ضرائب على الفقراء حتى يدفع الأغنياء:

وهذا موقف آخر يدل على أن الشيخ لم يكن موظف دولة يقوم بدور المحلِّل الذي يضفي الشرعية على تصرفات الحكام.

سجل السيوطي في حسن المحاضرة بعض الرسائل التي كانت بين الإمام النووي والظاهر بيبرس، وكان أكثرها خاصًا بترك الضرائب المفروضة على الشعب مع ضيق ذات اليد فيقول في إحداها:

«.. إن أهل الشام في هذه السنة في ضيق وضعف حال؛ بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار، وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي، وأنتم -يقصد السلطان- تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية ونصيحتهم في مصلحته ومصلحتهم؛ فإن الدين النصيحة».

وقد رد السلطان على هذه النصيحة ردًا عنيفًا، واستنكر على العلماء موقفهم منه، وسكوتهم يوم كانت البلاد تحت سنابك الخيل في عهد التتار في وقت استيلائهم على الشام.

ويعنى ذلك أنه: يمُنّ على الشعب بأنه أرحم عليهم من التتار!! فيرد الشيخ ردًا قويًا مؤكدًا قوله ونصيحته ومبينًا أنها الميثاق الذي أخذه الله على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فقال: «وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا في البلاد، فكيف يُقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن بطغاة الكفار؟ وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار، وهم لا يعتقدون شيئًا من ديننا؟!

وأما أنا فلا يضرني التهديد، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب عليَّ وعلى غيري، وما ترتب على الواجب -

يعني من أذى وخلافه- فهو خير وزيادة، وأفوِّض أمري إلى اللّه، إن اللّه بصير بالعباد، وقد أمرنا رسول اللّه أن نقول الحق حيثما كنا، وألاّ نخاف في اللّه لومة لائم، ونحن نحب للسلطان في كل الأحوال ما ينفعه في آخرته ودنياه».

وقد توالت رسائل الشيخ بهذه القوة الرفيقة، ولكن الظاهر بيبرس لم ينتصح بنصيحته، واستمر في جباية الضرائب من الرعية بدعوى أن الحرب تحتاج لمزيد من المال والعتاد.

وقد جمع السلطان فتاوى العلماء في تأييد عمله، فأفتى الجميع بما أراد عدا النووي الذي زاد استمساكًا برأيه، فأمر الظاهر بإحضاره ليوقع على ما وقعوا عليه، فعندئذ أجابه الشيخ النووي بجواب عنيف بعد تلك الكتب الرقيقة الرفيقة، بأن يبدأ بنفسه ومن حوله فيخرجوا المال الذي بحوزتهم، فإذا لم يكفِ ما معهم فُرضت الضرائب على الناس بقدر الحاجة.

فقال للسلطان بيبرس: «أنا أعرف أنك كنت في الرق للأسير بندقار، وليس لك مال أصلًا، ثم منَّ اللّه عليك وجعلك ملكًا، وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب -أي: ثياب موشاة بالذهب في مضايقها- وعندك مائة جارية لكل جارية حق من الحلي، فإن أنفقت ذلك كله وبقيت المماليك بالبنود الصوف بدلًا من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي أفتيك بأخذ المال من الرعية».

فغضب الظاهر من هذا الكلام، وقال: اخرج من بلدي -أي دمشق-

فقال: السمع والطاعة، وخرج إلى نوى بالشام، فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا، وممن يُقتدى بهم فأعده إلى دمشق، فرسم السلطان برجوعه فامتنع الشيخ، وقال: لا أدخلها والظاهر بها. فمات الظاهر بعد شهر[(١)]

الشيخ المراغي:

قدم المراغي قانونًا لإصلاح وضع الأزهر للملك فؤاد الأول الذي كان مشرفًا على شئون الأزهر آنذاك، إلا أن بعض حاشية الملك فؤاد أوعزوا له بأن الشيخ المراغي يريد استقلال الأزهر عن القصر، فرفض الملك فؤاد القانون، وأعاده إلى الشيخ المراغي، فما كان من الشيخ المراغي إلا أن وضع القانون الخاص بإصلاح الأزهر في ظرف، واستقالته من مشيخة الأزهر في ظرف آخر، وطلب من الملك فؤاد حرية الاختيار، فقبل الملك فؤاد الاستقالة، ولكن الإضرابات عن الدراسة التي قام بها علماء الأزهر وطلابه، والتي استمرت أكثر من عام كامل أجبرت الملك فؤاد على إعادة المراغي شيخًا للأزهر مرة أخرى.

لا سلطان على شيخ الأزهر إلا لله:

كانت للإمام المراغي مواقف تاريخية مشرفة تؤكد بما لا يدع مجالًا

---

(١) انظر في ترجمته: طبقات السبكي (٨/ ٣٩٥- ٤٠٠)، وتذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٧٠-١٤٧٤)، والبداية والنهاية (١٣/ ٢٧٨)، ومعجم المؤلفين (١٣/ ٢٠٢)، والاهتمام بترجمة الإمام النووي شيخ الإسلام للسخاوي، والنووي؛ للشيخ علي الطنطاوي والإمام النووي للشيخ عبد الغني الدقر. والمنهاج السوي في ترجمة محيي الدين النووي للسيوطي. طبعة دار التراث الأولى ١٤٠٩ هـ تحقيق: د. محمد العيد الخطراوي.

للشك أنه عالم رباني لا يخاف في الله لومة لائم.

من هذه المواقف المشرفة: موقفه من الحرب العالمية الثانية، حيث رفض الإمام المراغي فكرةَ اشتراك مصر في هذه الحرب، سواء بالتحالف أو التعاون مع الإنجليز، أو التعاون مع الألمان للتخلص من الاحتلال البريطاني.

ويذكر أن المصريين غُرِّر بهم في هذه الحرب، وصارت مصر بمحصولاتها وخيراتها ورجالها وقفًا على احتياجات الإنجليز في الحرب، وكان الإنجليز قد وعدوا المصريين بالاستقلال حال النصر، وصدَّقهم المنخدعون والمنبطحون، على حين توجه آخرون إلى قبلة الألمان ليخلِّصوهم من الإنجليز، وفرحوا بدخول الألمان منطقة العلمين، وهتفوا بقائد الجيش الألماني: تقدم يا روميل، فأعلن الإمام المراغي موقفه صراحة بقوله: **«إن مصر لا ناقة لها ولا جمل في هذه الحرب، وإن المعسكرين المتحاربين لا يمتان لمصر بأية صلة»**.

وقد أحدثت كلمة الإمام المراغي ضجة كبيرة هزت الحكومة المصرية، وأقلقت الحكومة الإنجليزية، والتي طلبت من الحكومة المصرية إصدار بيان حول موقف الإمام المراغي من هذه الحرب ومن الحكومة الإنجليزية.

فما كان من رئيس الوزراء المصري في ذلك الوقت حسين سري باشا إلا أن قام بالاتصال بالشيخ المراغي، وخاطبه بلهجة حادة طالبًا منه أن يحيطه علمًا بأي شيء يريد أن يقوله فيما بعد، حتى لا يتسبب في إحراج الحكومة المصرية.

فرد عليه الإمام المراغي بعزة المؤمن الذي لا يخاف إلا الله قائلًا: **«أمثلك يهدد شيخ الأزهر؟! وشيخ الأزهر أقوى بمركزه ونفوذه بين**

المسلمين من رئيس الحكومة، ولو شئت لارتقيت منبر مسجد الحسين، وأثرت عليك الرأي العام، ولو فعلت ذلك لوجدت نفسك على الفور بين عامة الشعب».

وبعد فترة هدأت العاصفة؛ لأن الإنجليز أرادوا أن يتفادوا الصراع مع الشيخ المراغي؛ حتى لا يثير الرأي العام في مصر ضد القوات البريطانية المحتلة.

وهكذا يضرب الإمام المراغي المثل الأعلى للعالم الذي لا يخشى إلا اللَّه عز وجل.

كما تزعم الإمام المراغي حملة لجمع تبرعات في مصر لصالح المجاهدين في السودان الذين يقاومون الاحتلال البريطاني، في الوقت الذي كانت الحكومة المصرية **للأسف تساعد الجيش الإنجليزي على احتلال السودان**، وبلغت حصيلة التبرعات ستة آلاف جنيه مصري آنذاك، وهو مبلغ يساوي آلاف أضعافه الآن.

شرع اللَّه أكبر من المراغي:

ومن المواقف التاريخية المشرفة للإمام المراغي رفضه الاستجابة لطلب الملك فاروق ملك مصر، والخاص بإصدار فتوى تحرم زواج الأميرة فريدة - طليقته - من أي شخص آخر بعد طلاقها، فرفض الشيخ المراغي الاستجابة لطلب الملك فاروق، فأرسل الملك فاروق بعض حاشيته لكي يلحوا عليه لإصدار هذه الفتوى، فرفض الشيخ المراغي، ولما اشتد عليه المرض دخل مستشفى المواساة بالإسكندرية، وهناك زاره الملك فاروق للاطمئنان عليه من ناحية، وللإلحاح عليه مرة أخرى

لإصدار الفتوى الخاصة بتحريم زواج الملكة فريدة، فصاح الإمام المراغي على الرغم مما كان يعانيه من شدة الألم بسبب المرض قائلًا: «**أما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم بالزواج فلا أملكه، إن المراغي لا يستطيع أن يحرم ما أحل اللَّه**»(١)

علماء خاصموا أبواب السلاطين:

ولئن وجدنا علماء هرعوا إلى أبواب السلاطين يرجون نوالهم على حساب دينهم، فإن ثمة علماء كثر رغبوا فيما عند اللَّه -تعالى-، وأداروا ظهورهم لأبواب السلاطين خوفًا على دينهم والاكتفاء برضا اللَّه تعالى، وسنذكر هنا باقة من هذه المواقف التي زيَّن بها العلماء سيرتهم.

وهذه بعض المواقف ذكرها الإمام السيوطي، ننقلها عنه بتصرف واختصار:

روى أبو نعيم في الحلية عن ميمون بن مهران: أن عبد اللَّه بن عبد الملك بن مروان قدم المدينة، فبعث حاجبه إلى سعيد بن المسيب، فقال له: أجب أمير المؤمنين! قال: وما حاجته؟ قال: لتتحدث معه، فقال: لست من حُدّاثِه، فرجع الحاجب إليه فأخبره، قال: دعه.

قال البخاري في تاريخه: سمعت آدم بن أبي إياس يقول: شهدت حماد بن سلمة ودعاه السلطان فقال -أي: حماد-: أذهب إلى هؤلاء؟ لا واللَّه، لا فعلت.

---

(١) انظر: ترجمة الشيخ محمد مصطفى المراغي، في كتاب (النهضة الإسلامية في سير أعلام المعاصرين)، للدكتور محمد رجب البيومي (١/ ٤١٣).

وروى الخطيب، عن حماد بن سلمة: أن بعض الخلفاء أرسل إليه رسولًا يقول له: إنه قد عرضت مسألة، فأتنا نسألك، فقال للرسول: قل له: إنا أدركنا أقوامًا لا يأتون أحدًا لما بلغهم من الحديث، فإن كانت لك مسألة فاكتبها في رقعة، نكتب لك جوابها.

وأخرج أبو الحسن بن فهر في كتاب فضائل مالك، عن عبد اللّٰه بن رافع وغيره قال: قدم هارون الرشيد المدينة، فوجه البرمكي إلى مالك، وقال له: احمل إليَّ الكتاب الذي صنفته حتى أسمعه منك، فقال للبرمكي: أقرئه السلام وقل له: إن العلم يُزار ولا يزور، فرجع البرمكي إلى هارون الرشيد، فقال له: يا أمير المؤمنين! يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك في أمر فخالفك! اعزم عليه حتى يأتيك، فأرسل إليه، فقال: قل له يا أمير المؤمنين: لا تكن أول من وضع العلم فيضيعك اللّٰه.

وروى غنجار في تاريخه عن ابن منير: أن سلطان بخارى، بعث إلى محمد بن إسماعيل البخاري يقول: احمل إليّ كتاب (الجامع) و(التاريخ) لأسمع منك، فقال البخاري لرسوله: قل له: **أنا لا أذل العلم، ولا آتي أبواب السلاطين، فإن كانت لك حاجة إلى شيء منه، فلتحضرني في مسجدي أو في داري، وإلا فامنعني بقوة السلطان ليكون ذلك حجة لي عند ربي.**

وقال ابن باكويه الشيرازي في أخبار الصوفية: حدثنا سلامة بن أحمد التكريتي أنبأنا يعقوب بن إسحاق، نبأنا عبيد اللّٰه بن محمد القرشي، قال: كنا مع سفيان الثوري بمكة، فجاءه كتاب من عياله من الكوفة: بلغت بنا الحاجة أنا نقلي النوى فنأكله فبكى سفيان، فقال له بعض

أصحابه: يا أبا عبد اللّه! لو مررت إلى السلطان، صرت إلى ما تريد! فقال سفيان: واللّه لا أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟!

وأخرج ابن عساكر، من طريق أبي قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي قال: حدثنا أبو سعيد الأصمعي، عن أبي الزناد، عن أبيه، قال: كان الفقهاء كلهم بالمدينة يأتون عمر بن عبد العزيز، خلا سعيد بن المسيب، فإن عمر كان يرضى أن يكون بينهما رسول، وكنت الرسول بينهما.

وقال الآمدي: حدثني أبو العباس، قال: قدم طاهر بن عبد اللّه بن طاهر من خراسان في حياة أبيه يريد الحج: فنزل في دار إسحاق بن إبراهيم فوجه إسحاق إلى العلماء، فأحضرهم ليراهم طاهر، ويقرأ عليهم فحضر أصحاب الحديث والفقه وأحضر ابن الأعرابي، وأبا نصر صاحب الأصمعي، ووجه إلى أبي عبيد القاسم بن سلام في الحضور، فأبى أن يحضر وقال: العلم يُقصد، فغضب إسحاق من قوله ورسالته، وكان عبد اللّه بن طاهر أجرى له في الشهر ألفي درهم فلم يوجه إليه إسحاق، وقطع الرزق عنه، وكتب إلى طاهر بن عبد اللّه بالخبر- كأنه يرد إليه اعتباره -، فكتب إليه طاهر بن عبد اللّه: قد صدق أبو عبيد في قوله، وقد أضعفت الرزق له من أجل فعله فأعطاه، فأتاه ورد عليه بعد ذلك ما يستحقه.

وأخرج ابن عساكر، من طريق ابن وهب، عن عبد الرحمن بن يزيد، قال: حدثنا أبو حازم أن سليمان بن هشام بن عبد الملك قدم المدينة فأرسل إلى أبي حازم فدخل عليه.

فقال: فسلمت وأنا متكئ على عصاي فقيل: ألا تتكلم؟!

قلت: وما أتكلم به؟! ليست لي حاجة فأتكلم فيها، وإنما جئت

لحاجتكم التي أرسلتم إليَّ فيها، وما كل مَن يرسل إليَّ آتيه، ولولا الخوف من شركم ما جئتكم!.

إني أدركت أهل الدنيا تبعًا لأهل العلم حيث كانوا، يقضي أهل العلم لأهل الدنيا حوائج دنياهم وأخراهم، ولا يستغني أهل الدنيا عن أهل العلم لنصيبهم من العلم، ثم حال الزمان، فصار أهل العلم تبعًا لأهل الدنيا حيث كانوا، فدخل البلاء على الفريقين جميعًا، ترك أهل الدنيا النصيب الذي كانوا يتمسكون به من العلم حيث رأوا أهل العلم قد جاءوهم، وضيَّع أهل العلم جسيم ما قسم لهم باتباعهم أهل الدنيا، فقال سليمان بن هشام: صدقت..

وأخرج البيهقي في الزهد، وابن عساكر، عن سفيان: قال: قال بعض الأمراء لأبي حازم: ارفع إليَّ حاجتك قال: هيهات! هيهات! رفعتها إلى مَن لا تختزن الحوائج دونه، فما أعطاني منها قنعت، وما زوى عني منها رضيت، **كان العلماء فيما مضى يطلبهم السلطان وهم يفرون منه، وإن العلماء اليوم طلبوا العلم حتى إذا جمعوه بحذافيره، أتوا به أبواب السلاطين، والسلاطين يفرون منهم، وهم يطلبونهم.**

وأخرج ابن عساكر، عن الأوزاعي، قال: قدم عطاء الخراساني -وهو من علماء خراسان- على الخليفة هشام بن عبد الملك فنزل على مكحول، فقال عطاء لمكحول: ههنا أحد يحركنا؟ -يعني يعظنا- قال: نعم، يزيد بن ميسرة فأتوه، فقال له عطاء: حرِّكنا رحمك اللَّه، قال: نعم، كانت العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شُغلوا، فإذا شُغلوا فقدوا، فإذا فُقدوا طُلبوا، فإذا طُلبوا هربوا قال: أعد عليَّ، فأعاد عليه، فرجع ولم يلقَ هشام بن عبد الملك، ولم يدخل عليه بابًا.

وأخرج الخطيب وابن عساكر، عن مقاتل بن صالح الخراساني قال: دخلت على حماد بن سلمة، فبينا أنا عنده جالس؛ إذ دقّ داقٌّ الباب فقال: يا صبية اخرجي فانظري من هذا! فقالت: هذا رسول محمد بن سليمان الهاشمي -وهو أمير البصرة والكوفة- قال: قولي له يدخل وحده، فدخل وسلم فناوله كتابه، فقال: اقرأه، فإذا فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم من سليمان إلى حماد بن سلمة. أما بعد: فصبحك اللَّه بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها، فقال: يا صبية هلمي الدواة! ثم قال: لي: اقلب الكتاب واكتب: أما بعد فقد صبحك اللَّه بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا، فإن وقعت مسألة فأتنا فاسألنا عما بدا لك! وإن أتيتني، فلا تأتني إلا وحدك، ولا تأتني بخيلك ورجلك، فلا أنصحك ولا أنصح نفسي، والسلام.

فبينما أنا عنده، إذ دقَ داقٌّ الباب فقال: يا صبية اخرجي فانظري من هذا! قالت: هذا محمد بن سليمان، قال: قولي له يدخل وحده فدخل، فسلم ثم جلس بن يديه، ثم ابتدأ، فقال: ما لي إذا نظرت إليك امتلأت رعبًا!؟ فقال حماد: سمعت ثابت البناني يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«إن العالم إذا أراد بعلمه وجه اللَّه هابه كل شيء، وإذا أراد به أن يكثر به الكنوز، هاب من كل شيء»**[1]

---

(١) أخرجه الديلمي (٣/ ٧١ ، رقم ٤٢٠١) والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٣٦٣ ، رقم ٨٣٧).

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن مفلح بن الأسود، قال: قال المأمون ليحيى بن أكثم: إني أشتهي أن أرى بشر بن الحارث، قال: إذا اشتهيت يا أمير المؤمنين، فإليّ الليلة ولا يكون معنا بشر، فركبا.

فدق يحيى الباب فقال بشر: من هذا؟

قال: من تجب عليك طاعته.

قال: وأي شيء تريد؟

قال: أحب لقاك.

فقال بشر: طائعًا أو مكرهًا؟

قال: ففهم المأمون، فقال ليحيى: اركب، فمر على رجل يقيم الصلاة صلاة العشاء الآخرة فدخلا يصليان، فإذا الإمام حسن القراءة، فلما أصبح المأمون وجّه إليه، فجاء به فجعل يناظره في الفقه، وجعل الرجل يخالفه، ويقول: القول في هذه المسألة خلاف هذا، فغضب المأمون، فلما كثر خلافه قال: عهدي بك، كأنك تذهب إلى أصحابك، فتقول: خطأت أمير المؤمنين، فقال: **والله يا أمير المؤمنين إني لأستحي من أصحابي أن يعلموا أني جئتك!** فقال المأمون: الحمد لله الذي جعل في رعيتي من يستحي أن يجيئني، ثم سجد لله شكرًا، والرجل إبراهيم بن إسحاق الحربي.

وعن سفيان الثوري قال: دخلت على أبي جعفر - أي: المنصور- بمنى، فقال لي: ارفع حاجتك؟

فقلت له: اتق الله! فإنك قد ملأت الأرض جورًا وظلمًا، قال: فطأطأ رأسه.

ثم رفع وقال: ارفع لنا حاجتك؟

فقلت: إنما أُنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعًا، فاتق اللَّه وأوصل إليهم حقوقهم.

قال: فطأطأ رأسه ثم رفع وقال: ارفع إلينا حاجتك؟

قلت: حج عمر بن الخطاب ﷺ فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهمًا، وأرى هاهنا أمورًا لا تطيق الجمال حملها.

فقال: سألتنا حاجة غيرك فارفع إلينا حاجتك، فقال: ليست لي إلى مخلوق حاجة.

وفي أمالي الشيخ عز الدين بن عبد السلام التي علقها عنه تلميذه الشيخ شهاب الدين القرافي أحد أئمة المالكية، ما نصه: «ومن جملة كلامه - يعني الشيخ عز الدين ﷺ - وقد كتب إليه بعض أرباب الدولة يحضُّه على الاجتماع بملك وقتهم، والتردد إليه ليكون ذلك مقيمًا لجاهه وكابتًا لعدوه، فقال ﷺ قرأت العلم **لأكون سفيرًا بين اللَّه وبين خلقه، وأتردد إلى أبواب هؤلاء؟!**

قال القرافي: فأشار-رضي اللَّه تعالى عنه- إلى من حمل العلم، فقد صار ينقل عن اللَّه إلى عباده، فهو في مقام الرسالة ومن كان له هذا الشرف لا يحسن منه ذلك.

وفي طبقات الحنفية في ترجمة علي بن الحسن الصندلي: أن السلطان (ملك شاه) قال له: لِمَ لا تجيء إليَّ؟

قال: أردت أن تكون من خير الملوك، حيث تزور العلماء، ولا أكون

من شر العلماء؛ حيث أزور الملوك.

فَاِستَغنِ بِاللَهِ عَن دُنيا المُلوكِ   كَما اِستَغنى المُلوكُ بِدُنياهُم عَنِ الدينِ

وقال القالي في أماليه: حدثنا أبو بكر ابن الأنباري، حدثني أبي قال: بعث الأمير سليمان المهلبي إلى الخليل بن أحمد بمائة ألف درهم، وسأله في صحبته فرد عليه المائة ألف وكتب إليه بأبيات:

أَبلِغ سُلَيمانَ أَنّي عَنهُ في سَعَةٍ   وَفي غِنى غَيرَ أَنّي لَستُ ذا مالِ

وقال بعضهم:

هَيهاتَ اِغتَر بِالسُلطانِ تَأتيهِ   قَد ضَلَّ والِجُ أَبوابَ السَلاطينِ

بعث الأمير عز الدين حرسك إلى الشيخ الشاطبي يدعوه للحضور عنده، فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب إليه هذه الأبيات وهي قوله:

قُـــل لِلأَمـــيـــرِ مَـــقـــالَةً   مِـن نـاصِـحٍ فَـطِـنٍ نَـبـيـهِ

إِنَّ الـــفَـــقـــيـــهَ إذا أَتـــى   أَبـوابَـكُـم لا خَـيـرَ فـيـهِ

وفي (التذييل) للبدر النابلسي: قال سعيد بن إبراهيم بن عبد ربه، وقد انقبض عن الملوك في آخر عمره:

أَمِن بَعدِ غَوصي في عُلومِ الحَقائِقِ   وَطولِ اِنبِساطي في مَذاهِبِ خالِقي

وَفي حينِ إِشرافي عَلى مَلَكوتِهِ   أَرى طالِبًا رِزقًا إِلى غَيرِ رازِقي

وقال:

وَكَم زَفرٌ تَحتَ الضُلوعِ لَهيجُها   حَكيمٌ يَبيعُ العِلمَ بِالجورِ حاكِما

* * * * *

الفصل السادس
العالم الذي نريد

الفصل السادس
العالم الذي نريد

العلماء ورثة الأنبياء، وعليهم عبء الإصلاح بعد ختم النبوة وانقطاعها، وقيامهم بالحق بين الناس يقوم مقام نبي حاضر، وهم وإن تسلحوا بالعلم فإنه سلاح ذو حدين: فإما يضاعَف لهم الأجر أو يضاعَف عليهم الوزر.

فعن حذيفة قال: «اتقوا اللَّه يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم، **فواللَّه لئن استقمتم لقد سُبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا**»[1].

ولم يخلُ عصر من عصور الإسلام من العلماء الدعاة الذين يقومون بواجبهم المقدَّس في أداء الأمانة ونشر العلم، وتقويم الاعوجاج، ومواجهة الظلم، وتصويب الخطأ، وذلك استشعارًا للمسئولية، وتقديرًا للأمانة، وإدراكًا لعظم دورهم باعتبارهم طليعة الأمة، واللسان المعبر عن آلامها وآمالها؛ لأنهم روادها. والرائد لا يكذب أهله.

يقول أبو الأسود الدؤلي: «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك».

وكذلك فإن المال يحكم على الناس، والعلماء تحكم على المال.

وهؤلاء الرواد الصادقون لم تشغلهم مؤلفاتهم ووظائفهم عن الجهر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٩، رقم ٣٤٨٠١) ، وابن عساكر (١٢/ ٢٩٢)

بكلمة الحق، وتبصير الناس به، ومحاربة البدع، ونصح الحكام، وخوض ميادين الجهاد، حتى باتوا يُعرفون بمواقفهم التي فاقت في الفائدة قيمة الكتب المطولة، وإن كان بعضهم من المبرزين في التأليف أيضًا، **فاقترنت أسماؤهم بمواقفهم لا بمؤلفاتهم**، وحمل التاريخ سيرتهم العطرة تسوق إلى الناس جلال الحق وعظمة الموقف، وابتغاء رضى اللَّه، دون نظر إلى سخط حاكم أو ثناء محكوم.

علماء المرحلة:

ربما يكون جهاد العلماء منصرفًا إلى التأليف والتدريس، وصنوف التحريرات والمناظرات، والخوض في الفروع وفروع الفروع، وذلك إذا ما كانت للإسلام دولة مصونة الجانب مهابة الجناب، شريعتها مطبقة، ورايتها مرفوعة، وجيوشها تشرِّق وتغرِّب منطلقة بدعوة اللَّه بين الناس.

لكن إذا قام الفُجار بتنحية الشريعة وتغييب الجماهير واستعبادها، وموالاة الأعداء ومطاردة أهل الصدق والبلاء، وأطلت السنوات الخداعات، وتحكمت الأهواء، وأطلت الفتن. . ، وجب على العلماء أن يقوموا بدور أصرح وأوضح، وصار حقًّا على صاحب كل علم أن يُخرجه، وكاتم العلم يومئذ ككاتم ما أُنزل على محمد!

إن الأمة الآن لا تحتاج إلى رواة بل إلى مربين ودعاة؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويكونون على مستوى الحدث، وعلى قدر المسئولية في قيادة الأمة في هذه الظروف الحالكة.

وهاك صفات نحتاج إليها ونتشدد في ضرورة وجودها بشكل حتمي لا يقبل النقاش والتفاوض، ونُصِرُّ على أن تكون متوفرة في العلماء الذين

يستحقون الطاعة، ونأتمنهم على عقولنا في هذه المرحلة، ومنها ما يلي:

أولًا: قصد الرضا والثواب من اللّه وحده:

فلا قيمة لعمل بلا نية، فما بالنا بالعلم الذي هو من أشرف العبادات؟ وذلك لحديث أول من تسعر بهم جهنم ثلاثة، وذكر منهم: «ورجلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وقرأ القرآن، فَأُتِيَ به، فعرَّفهُ نِعَمَهُ فَعرفَهَا، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تَعلَّمْتُ العِلْمَ وعلَّمْتُهُ، وقرأْتُ فيكَ القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنكَ تعلَّمْتَ العلم ليقال: عالمٌ، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثُمَّ أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقيَ في النَّارِ»[1]

والعالم الذي يريد بعمله جاهًا أو سمعة أو رضا هذا أو مدح ذاك، قد سقط من أعيننا، ولن نعده من علماء المرحلة، وأولى به أن يعالج نفسه مما حل بها ونحن في حلٍّ من قبول فتاويه واتباع مساربه.

وهو العالم المحسوب على الحق وحده، وليس محسوبًا على سلطان أو مؤسسة يعمل لها ويواليها على حساب دعوته.

فكيف تقيك من برد خيام إذا كانت ممزقة الرباط؟!

ثانيًا: جمع الأمة على الثوابت، وتجييش طاقتها في مناصرة المتفَق عليه مما لا يختلف عليه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان.

إن هناك الكثير من الأولويات الغائبة التي لا بد أن يعرفها الناس عن دينهم، وكما قال الحجاج بن يوسف الثقفي: «علِّم ولدك السباحة قبل الكتابة، فإنه يجد من يكتب له، ولا يجد من يسبح له».

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

ومن هذه الثوابت: وجوب تحكيم الشريعة، وموالاة المؤمنين، والبراءة من الأعداء المتربصين، والعالم الصدق الواعي هو من يبدأ بالأصول قبل الفروع، وبالكليات قبل الجزئيات، وبالمحكَمات قبل المتشابهات.

أما تتويه الأمة في فروع الفروع، وقتل القضايا التي لا ينبني عليها العمل بحثًا ومناقشة، في وقت جمع الباطل عدته ليجهز على ثوابت الأمة وركائزها، فهذا سلوك غير مقبول من العلماء، وإن لم يكن غفلة فهو خيانة!!

ثالثًا: البلاغ المبين وعدم كتمان العلم: وإلا تعرضوا لعقوبة القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، ولحديث: «مَنْ سُئِلَ عن عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»(١)

ولحديث: «لا يمنعن أحدكم هيبة الناس أن يقول الحق إذا رآه أو سمعه»(٢)

ووصف البلاغ بالمبين يفيد أنه لا بد أن تقوم به الحجة وتظهر به الحقيقة، فلا يُكتفى من العلماء بمجرد الدعوة الباهتة والخطاب المرتعش.

دعا ابن هبيرة والي البصرة من قبل يزيد بن معاوية كلا من الحسن البصري والأعمش وسألهما سؤالًا واضحًا: يأتيني الأمر من يزيد أرى فيه ما يخالف كلام اللّه، فإن أرضيت يزيد خالفت كتاب اللّه، وإن

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٦١) وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٣٠)، والترمذي (٢١٩١) وأبو يعلى (١٤١١)، وابن حبان (٢٧٥) وصححه الألباني.

أرضيت اللَّه غضب عليّ يزيد، فما أفعل؟

فأجابه الأعمش بما يدل على جواز المواراة والمقاربة بجواب لين مرن، والحسن البصري جالس على السرير عاضّ على أنامله - كأنه لم يعجبه جواب الأعمش المطاط -، فقال له ابن هبيرة: ما لك لا تتكلم يا أبا سعيد؟ فأجابه بالرد الواضح البين الفصل قائلًا: «يا ابن هبيرة: يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد، ينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، وحينها لا تجد يزيد الذي عصيت فيه رب يزيد.

يا ابن هبيرة: اتق اللَّه في يزيد، ولا تتق يزيد في اللَّه، يمنعك اللَّه من يزيد، ولا يمنعك يزيد من اللَّه».

فقال ابن هبيرة: الرأي ما رأيت، ولا زال عنده معظمًا، فقال الأعمش: أردت وجه ابن هبيرة فوضعني اللَّه، وأراد الحسن وجه اللَّه فرفعه اللَّه عند ابن هبيرة.

رابعًا: تبني قضايا الجماهير والاصطفاف مع المظلوم والدفاع عن الحق المسلوب.

وهكذا قام العلماء الصادقون عبر التاريخ، فواجه الأوزاعي ظلمة بني العباس، وقاوم النووي قانون الضرائب الذي فرضه الظاهر بيبرس على الناس، كما كان الناس يهرعون إلى شيوخ الأزهر ليرفعوا شكاوى الأمة للخديوي أو الباب العالي، وكذلك كان عبد اللَّه الشرقاوي وعمر مكرم والخراشي والعدوي والمراغي وغيرهم.

خامسًا: الصدع بكلمة الحق عند أئمة الجور، وهو أفضل الجهاد، كما في الحديث، ومقاومة انحراف الظالمين وزجرهم، كما صدع بها سعيد بن

جبير على مسامع الحجاج، وأصر العز بن عبد السلام على بيع الأمراء، وصمد الإمام أحمد في محنة خلق القرآن أمام زيغ الحكام وانحراف علماء السلطة.

ومن قبل قد قدم سيدنا يحيى روحه ثمنًا لفتوى لم ترضِ أمير اليهود، ونُشر زكريا عليه السلام بالمنشار، ودفع الصادقون من العلماء ضريبة هذه الكلمة على مدى الأزمان ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

سادسًا: تقديم القدوة والمثل والنموذج، وتصدُّر الجماهير في القضايا العادلة، وقديما قالوا: إذا كنت إمامي فكن أمامي.

وقام العلماء الصادقون -عبر التاريخ - بثورات صحيحة في التغيير، كثورة ابن الأشعث والعلماء معه، والحسين بن علي رضي الله عنهما.

وحديثًا: ثورة الأزهر الأولى والثانية ضد الفرنسيين، وثورة عز الدين القسام ضد اليهود والإنجليز، وثورة عمر المختار ضد الطليان، وعبد الكريم الخطابي ضد إسبانيا وفرنسا.. وغير ذلك كثير.

وغير مقبول من العلماء أن يكشفوا بتخاذلهم ظهر الجماهير المعذبة والثائرة على الظلم، بل عليهم أن يتقدموا الصفوف في كل قضية عادلة، فهم مع المظلوم حتى يأخذ حقه، وعلى الظالم حتى ينزع عن ظلمه.

سابعًا: البعد عن أبواب السلاطين:

وقد تقدم بنا ما أخرجه ابن ماجه بسند رواته ثقات، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن أناسا من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرءون القرآن، ويقولون نأتي الأمراء، فنصيب من دنياهم، ونعتزلهم بديننا،

ولا يكون ذلك؛ كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يُجتنى من قربهم إلا الخطايا».

وأخرج البخاري في تاريخه وابن سعد في الطبقات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يدخل الرجل على السلطان ومعه دينه، فيخرج وما معه شيء».

ومر الحسن البصري بباب عمر بن هبيرة وعليه القراء فسلم، ثم قال: «ما لكم جلوسًا قد أحفيتم شواربكم وحلقتم رءوسكم، وقصرتم أكمامكم، وفلطحتم نعالكم! أما والله! لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم، فضحتم القراء فضحكم الله».

وقال أبو حازم عمن غشوا الأمراء: ليسوا علماء إنما هم رواة.

فكيف يقبل العالم على نفسه أن يسهر ويكد في طلب العلم، ثم يريق ماء وجهه على أعتاب هؤلاء؟ ولذلك قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني وهو يصف عزة نفس العالم:

يقولونَ لِي: فيكَ انقباضٌ، وإنَّما ... رَأَوْا رجلًا عن موقفِ الذُّلِّ أحجما

أرى الناسَ مَنْ داناهُم هانَ عندَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عزةُ النفسِ أُكْرِما

وَلَمْ أقْضِ حَقَّ العِلْمِ إنْ كانَ كُلَّما ... بدا طمعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّما

إذا قيلَ: هذا مَوْرِدٌ، قُلْتُ: قَدْ أرى ... وَلكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّما

وَلَمْ أبْتَذِلْ في خِدْمَةِ العلمِ مُهجَتِي ... لأَخْدِمَ مَنْ لاقيتُ، لكنْ لأُخْدَما

أأشقَى بِهِ غَرْساً، وَأجنيهِ ذِلَّةً؟! ... إذاً، فاتِّباعُ الجَهْلِ قَدْ كانَ أحْزَما

وَلو أنَّ أهْلَ العِلمِ صانُوهُ صانهُمْ ... وَلَوْ عظَّموه في النفوس لَعُظِّما

ولكن أهانوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا   مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حتى تَجَهَّما[1]

ثامنًا: التحرر من قيود الوظيفة:

لنا درس من مؤامرة السطو على أوقاف الأزهر والتي كان هدفها تجويع وتركيع العلماء؛ لأن موظف الدولة لا يمكنه أن ينتقد نظامها الذي يتقاضى منه راتبه، فكان لزامًا على العلماء أن يجعلوا الوظيفة أضيق أبواب الرزق حتى يتمكنوا من قولة الحق دون رغب نوال أو خوف حرمان.

وقد عرف العلماء قديمًا بامتهان المِهن التي تغنيهم عن طرق أبواب ذوي المالِ والسلطان؛ لتكون فتاواهم حرة غير مُسَيَّسة، فعرفنا منهم الجصاص والزيات، والخواص والنجار، والمقبري، وغيرهم كثير.

وقال بعض الأمراء لعالم سلني، فقال: «والله ما سألت الدنيا من يملكها، أفأسألها من لا يملكها؟!».

ودخل أمير على عالم في مجلسه فلم يضم رجله -وكان قد مدها بين طلابه تبسطًا-، فأراد الأمير كسر عزته، فأرسل إليه بِصُرَّة دنانير ليأخذها بغرض استعباده، فبعثرها، وقال للوسيط: قل لسيدك: **«إن الذي يمد رجله لا يمد يده»**.

تاسعًا: مجابهة علماء السوء وفضح أباطيلهم وكشف شبهاتهم:

قيل لعالم عند احتضاره: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي حجة تتألق اتضاحًا

---

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١/ ٥٠)، المؤلف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م، وانظر: يتيمة الدهر للثعالبي، (١/ ٤٧٨).

وشبهة تتمايل افتضاحًا.

إن الأنظمة الفاسدة حريصة على أن تجند حملة المباخر من العلماء الذين يفتون لصالح السلطان.

ولا يخفى ما في هذه الفتاوى من مجاملات واضحة أو فاضحة جعلت من الدين موظف تشريفات يُستدعى لإقرار الباطل، ثم يتم طرده ليخلو المجال للفاسدين.

فهذا عالم يحل الربا للناس بدعوى المصلحة!!

وآخر يجامل الطغمة العلمانية الحاكمة، ويقول بأن فلانًا الظالم الجائر أمير للمؤمنين صحت بيعته وتجب طاعته!!

وآخر يقول بوجوب قتل المنادين بتطبيق الشريعة؛ لأنهم خوارج!

وآخر يطالب بإخراج الدين من حلبة التوجيه والتقنين!!

وآخر يجرِّم الحجاب، ويقول بأن الرقص صلوات الروح!!

وآخر يفسر قوله -تعالى-: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] بتمثيل المشاهد الفاضحة. إلخ.

إن علماء السوء يلبِّسون على الناس، ولا يملك كثيرٌ من العوام -مع وضوح انحرافهم- أدلة لمواجهة زيفهم، ومن هنا وجب على العلماء الصادقين أن يحذروا الناس من أباطيلهم، وأن يردوا عليهم بالحجة لينقذوا الناس من ضلالاتهم؛ لأن هؤلاء فجار، وذكر الفاجر بفُجره ليحذره الناس مطلوب من العلماء شرعًا.

عاشرًا: رفع الغطاء عن المناهج المنحرفة، وكشف حقيقتها للناس وعدم تبريرها أو شرعنتها بالفتاوى المسيسة.

إن فضح العلمانية والليبرالية ومحافل الماسونية، ومؤامرات النخب العميلة في هذا الزمان لا يقل عن مجابهة علماء الأمة قديمًا للفرق الهدامة؛ كالباطنية والروافض والقرامطة ومنها إلى البهائية والقديانية.

ولا يليق بحالٍ أن يشارك العلماء أصحاب هذه الأفكار المشبوهة حفلاتهم ومؤتمراتهم، وأولى بهم أن يقوموا بواجبهم في كشف مخططات التغريب والتبشير والغزو الفكري الذي تتعرض له الأمة، وأن يمثلوا حائط الصد المنيع عن هوية الأمة وثوابتها.

لقد رابنا أن بعض هؤلاء العلماء أن صار عضوًا في هذه المحافل الماسونية وتبنَّى أفكارها، وبعضهم انضم إلى أحزاب ألغت تمامًا من برامجها الإسلام وشرائعه وتبنت الأفكار الوافدة..

فتراهم يكثِّرون سواد أعداء الشريعة بتواجدهم في محافلهم وانضمامهم إلى أحزابهم.

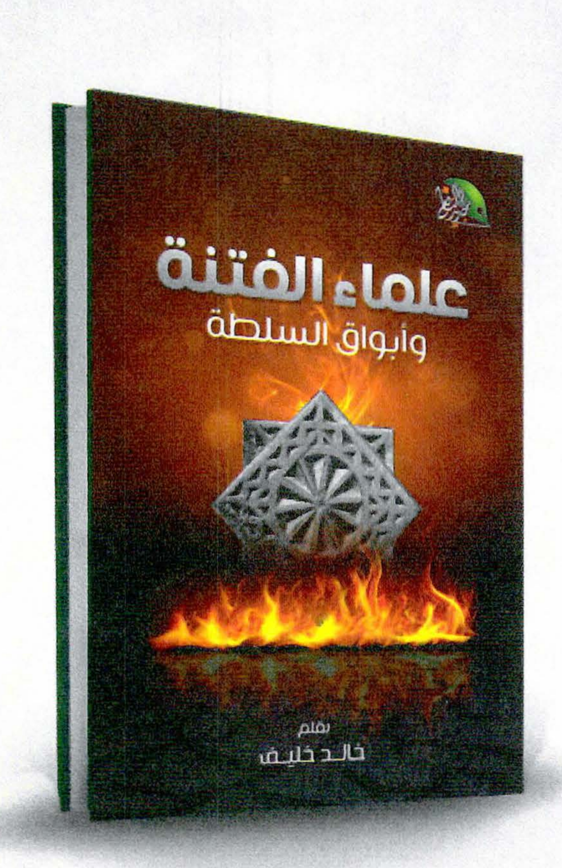
إنه الولاء والبراء هو الذي يدل على حياة القلوب، وشدة تعلقها بالإسلام. وقد نقل ابن مفلح عن ابن عقيل أنه قال: «إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداءَ الشريعة»[(١)]

أسأل الله -تعالى- لنا الثبات ولأمتنا الخير والرشاد

---

(١) انظر: شرح منظومة الإيمان، عصام المراكشي (١/ ١٩١).

الفهرس



علماء الفتنة
وأبواق السلطة
بقلم
خالد خليف